مراتب طلب العلم وطرق تحصيله

تأليف
فضيلة الشيخ الدكتور
أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان
حفظه الله تعالى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المُؤلف

إِنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أنفسنا وسيئاتِ أعمالنا، مَنْ يهده اللَّـهُ فَلَا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِي لَهُ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أمَّا بعدُ:

فَإِنَّ أَصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسن الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكلَّ مُحْدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ أسلافَنا -رحمهم الله تعالى- كانوا موفَّقين للخيرِ، حريصين على البرِّ، مجتهدين في العلم تحمُّلاً وأداءً، وكانوا -رحمهم الله- لا يتحركون إلا بسنَّةٍ، ولا يسكنون إلا بها، لذلك كانت طُرقُهم في التعليم والتعلُّمِ سائرةً على منهاج الكتابِ والسنَّةِ لا تحيد.

ولكنَّ السلفَ الصالحَ كانوا يعملون أكثرَ مما يتكلَّمون، فلم يهتمُّوا في بداية الأمرِ بتقعيد القواعد وتأصيلِ الأصولِ كتابةً تُكتبُ وكُتبًا تُقرأ، وإنَّما كان همُّهم أن يحذو

تلاميذُهم حَذوَهم، ويسيروا على دربهم حتى يكون منتهاهم الجنة إن شاء الله ربُّهم.

ثمَّ تدافعت الأجيالُ حتى كُنَّا، وإن منَّا اليوم لأقوامًا انسلخوا من جلدتهم وضاقت بهم ثيابهم، فيمَّموا وجوههم قِبل المغرب، فوجدوا قومًا يمضغون الكلامَ في أشداقهم، يتعالمون ويثرثرون، وما بهم من علم إن هي إلا الثرثرة، والتفت هؤلاء إلى ماضي أمَّتنا فوجدوا أسلافنا يعلِّمون ولا يتكلَّمون في طرقِ التعليم على «المنهج الحديث» كما يزعمون، فرَمَوا أجدادَنا بالعُقم الفكري، بل ورَمَوا ديننا بِكلِّ عظيمةٍ، والله يعلم أن الدين والأسلافَ برآءٌ من هذا كلِّه، والله يعلمُ إنَّ المحْدَثِينَ لكاذبون.

وأمامك الآن بعضُ الخطوط التي خطَّها علماؤنا في منهاج التعليم فانظر فيها، وسترى -إن شاء الله- أنهم كانوا وسيظلُّون -إن شاء الله- أصحاب السَّبقِ في كلِّ ما تكلَّموا فيه، والله المستعان وعليه التكلان.

وكتب

أبو عبد الله

محمد بن سعيد بن رسلان

عفا الله عنه وعن والديه

أولاً: مرَاتِبُ الطَّلَبِ

إنَّ الله ﷻ هو فطرَ الإنسانَ وهو أعلم بما يُصلحه ويُرشدُه ويهديه، وهو سبحانه «**الربُّ**». أي: الذي يتولى التربيةَ والرعايةَ والكلاءَة والحفظ، ومن تمام التربية في البشرِ أنَّ الله جعلها في الإنسانِ متدرِّجةً منذ نعومَةِ الأظفارِ، حتى الورود على القبرِ؛ فالصبيُّ قبل احتلامه مأمورٌ أبواه بتعليمه الصلاة -مثلًا- من غير إجبارٍ منفِّرٍ، ولا إخلالٍ يؤدي إلى التفريط، وهو في كلِّ ذلك مرفوعٌ عنه القلم، حتى إذا احتلم أصبحَ الأمرُ جِدًّا لا هزلَ فيه، ولو أُلزم بفرض الصلاة إلزامًا من قبل أن يميِّزَ لكان الأمر مدعاةً للمشقة والحرج.

وقد أخذ الله سبحانه هذه الأمَّةَ بهذه السُّنَّةِ الكونيةِ -سُنَّة التدرُّج- من بدء أمرها، وكأنَّها كانت وليدًا ينمو، حتى إذا تمَّ تَمامُها، أُعلمت أنَّها أمَّةٌ مَبَلِّغَةٌ للبشرِ إلى يوم الدين، وأنَّها أمَّةٌ شاهدةٌ على مَن سبقها من الأممِ؛ لأنَّها الأمَّةُ الخاتـمـةُ.

وقد تَدَرَّجَ دينُ الله ﷻ في تربيةِ هذه الأمَّةِ كما تَدَرَّجَ في تربيةِ الفردِ، فأخذها باللطفِ والشفقةِ حتى إذا ثابت القلوبُ إلى الدين أُعلمت بما يحلُّ ويحرم ممَّا أَلِفَتهُ النفسُ قبلُ، لأنَّ مفارقة المألوف من غير يقينٍ يُعَضِّدُ: أمرٌ شديدُ المشقَّةِ على النفوس، ثقيلُ الوطأَةِ على القلوب.

عن يوسف بن ماهَكٍ قال: «إنِّي عندَ عائشةَ أُمِّ المؤمنينَ رضي الله عنها إذ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ، فَقَال: أيُّ الكَفَنِ خَيرٌ؟ قَالَت: وَيحَكَ ومَا يَضُرُّكَ؟ قَالَ: يَا أُمَّ المؤمنينَ، أَرِيني مُصحَفَك، قَالَت: لِـمَ؟ قَالَ: لَعلِّي أُؤلِّفُ القرآنَ عَلَيه، فَإِنَّهُ يُقرأُ غَيرَ مُؤَلَّفٍ، قَالَت: ومَا يَضُرُّك أَيَّهُ قَرَأتَ قَبلُ، إنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ منه سُورَةٌ من المفصَّل فيها ذِكرُ الجنَّةِ والنَّارِ، حتَّى إذَا ثَابَ النَّاسُ إلى الإسلام نَزَلَ الحَلَالُ والحَرَامُ، وَلَو نَزَلَ أَوَّلَ شَيءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخمرَ، لَقَالُوا: لا نَدَعُ الخمرَ أبدًا، ولَو نَزَلَ: لا تَزنُوا، لقَالُوا: لا نَدَعُ الزِّنَا أَبدًا، لقَد نَزَلَ بِمَكَّةَ

علَى مُحَمَّدٍ ﷺ وإنِّي لَجَارِيةٌ أَلعَبُ: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر:٤٦]. ومَا نَزَلَت سُورَةُ البَقَرةِ والنِّسَاءِ إلا وَأَنَا عِندَهُ، قالَ: فَأَخرَجَت مُصحَفَهَا، فأملَت عَلَيه آيَ السُّوَرِ[١]» أخرجه البخاري.

قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولها: «حَتَّى إذَا ثَابَ» بالمثلَّثَة ثمَّ الموحَّدة؛ أي: رجع.

وقولها: «نَزَلَ الحلالُ والحَرَامُ»، أشارت إلى الحكمةِ الإلهية في ترتيب التنزيل، وأنَّ أولَ ما نزل من القرآنِ: الدعاءُ إلى التوحيد، والتبشيرُ للمؤمنِ والمطيعِ بالجنَّةِ، وللكافرِ والعاصي بالنَّار، فلمَّا اطمأنَّت النفوسُ على ذلك أُنزلت الأحكامُ، ولهذا قالت: «ولَو نَزلَ أوَّلَ شَيءٍ: لا تَشْرَبُوا الخمرَ، لقَالُوا: لا نَدَعُ الخمرَ أبدًا». وذلك لما طُبعت عليه النفوسُ من النُّفْرَةِ عن تركِ المألوفِ»[٢].

وقد كان من مقترحات الكفار أن ينزل القرآنُ كلُّه جملةً واحدةً، فردَّ الله عَزَّوَجَلَّ عليهم مبينًا الحكمةَ في التنجيم -التفريق- فقال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٢-٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء:١٠٦].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدم، أي: أنزلناه نجمًا بعد نجم -آية بعد آية-، لو أُخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا»[٣].

ومن الحِكَم العظيمةِ في سبب نزولِ القرآن مُنَجَّمًا: «التَّدَرُّجُ في تربيةِ هذه الأمَّةِ الناشئةِ عِلمًا وعَملاً.

(١) في رواية: آي السورة.

(٢) فتح الباري (٨/ ٦٥٧).

(٣) تفسير القرطبي (ص٣٩٥٦).

وينضوي تحت هذا الإجمال أمورٌ:

أولها: تيسير حفظ القرآنِ على الأمَّةِ العربيةِ، وهي أمَّةٌ أُمِّيَّةٌ -كانت- وأدواتُ الكتابةِ لـم تكن ميسورةً لدى الكاتبين منهم على ندرتهم، وكانت مُشتَغِلَةً بمصالحها المعاشية، وبالدفاع عن دينها الجديد بالحديد والدم، فلو نزل القرآنُ جملةً واحدةً لعجزوا عن حفظه، فاقتضت الحكمةُ العليا أن ينزله الله إليهم مفرَّقًا ليسهُلَ عليهم حفظُه، ويتهيَّأ لهم استظهاره.

ثانيها: تسهيلُ فَهمِهِ عليهم كذلك، مثلما سبق في توجيه التيسير في حفظه.

ثالثها: التمهيدُ لكمالِ تخلِّيهم عن عقائِدهم الباطلةِ، وعباداتهم الفاسدة، وعاداتهم المرذولة؛ وذلك بأن يُراضوا على هذا التخلِّي شيئًا فشيئًا، بسبب نزول القرآن عليهم كذلك شيئًا فشيئًا، فكلما نجح الإسلام معهم في هدم الباطلِ، انتقل بهم إلى هدمٍ آخر، وهكذا يبدأ بالأهمِّ ثمَّ بالمهمِّ، حتَّى انتهى بهم آخرَ الأمرِ عن تلك الأرجاسِ كلِّها فطهَّرهم منها وهم لا يشعرون بعنَتٍ ولا حرجٍ، وفطمهم عنها دون أن يَرتَكِسوا في سابِق فتنةٍ أو عادةٍ، وكانت هذه سياسةً رشيدةً، لابدَّ منها في تربية هذه الأمَّةِ المجيدة، لاسيَّما أنها كانت أبيَّةً معاندةً، تتحمَّس لموروثاتها، وتستميت في الدفاع عمَّا تعتقده من شرفها وتتهوَّر في سفك الدماءِ وشَنِّ الغاراتِ لأتفه الأسباب.

رابعها: التمهيدُ لكمالِ تحلِّيهم بالعقائِد الحقَّةِ، والعبادات الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، بمثل تلك السياسة الرشيدة السابقة.

وهذا بدأ الإسلامُ بفطامهم عن الشرك والإباحةِ، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء، من جرَّاء ما فتح عيونهم عليه من أدلة التوحيد، وبراهين البعث بعد الموت، وحُجَجِ الحسابِ والمسئولية والجزاءِ.

ثمَّ انتقل بهم بعد هذه المرحلةِ إلى العبادات؛ فبدأهم بفرضية الصلاة قبل الهجرةِ، وثنَّى بالزكاةِ وبالصوم في السنةِ الثانية من الهجرة، وختم بالحجِّ في السنة السادسِة منها.

وكذلك كان الشأنُ في العاداتِ؛ زجرهم عن الكبائرِ وشَدَّد النكير عليهم فيها، ثمَّ

نهاهم عن الصغائر في شيء من الرفقِ، وتدرَّج بهم في تحريم ما كان مستأصلاً فيهم كالخمر تدرُّجًا حكيمًا حقَّق الغايةَ، وأنقذهم من كابوسها في النهاية.

وكان الإسلامُ في انتهاج هذه الخُطَّةِ المثلى أبعدَ نظرًا، وأهدى سبيلاً، وأنجح تشريعًا، وأنجع سياسةً، من تلكم الأممِ المتمدينةِ المتحضرةِ التي أفلست في تحريمِ الخمرِ على شعوبها أفظعَ إفلاسٍ، وفشلت أمرَّ فشلٍ، وما عهد أمريكا في مهزلةِ تحريمها الخمر ببعيد[1].

أليس ذلك إعجازًا للإسلامِ في سياسةِ الشعوب، وتهذيبِ الجماعاتِ، وتربية الأمم؟! بلى، والتاريخُ على ذلك من الشاهدين.

(١) في القرنِ العشرين أرادت الولاياتُ المتحدةُ الأمريكيةُ تخليصَ مواطنيها من الخمرِ، وقبل أن تَسُنَّ قانونَ تحريمِ الخمرِ، مهَّدت له بدعايةٍ واسعةٍ جدًّا لتهيئةِ النفوسِ لقبولِ هذا القانونِ، وقد استعانت بجميعِ أجهزةِ الدولةِ وبذوي الكفاية في هذا الباب؛ استعانت بجميعِ وسائلِ الإعلامِ، وبنشر الكتبِ والرسائلِ والنشراتِ والمحاضراتِ والإحصائياتِ من قِبَلِ العلماءِ والأطباءِ والمعنيينَ بالشئونِ، وقد قُدِّرَ ما أُنفقَ على هذه الدعايةِ بخمسةٍ وستينَ مليونًا من الدولارات، وكُتبت تسعةُ آلافِ مليون صفحة في مضارِّ الخمرِ، ونتائجِ شُربِهَا وعواقبِهِ، وأُنفقَ ما يقرُبُ من عشرة ملايين دولار من أجلِ تنفيذِ القانون.
وبعد هذه الدعايةِ الواسعةِ، والأموال المنفقةِ، سَنَّت الحكومةُ قانونَ تحريمِ الخمرِ لسنة ١٩٣٠، وبموجبِهِ حُرِّمَ بيعُ الخمورِ، وشراؤُها، وصنعُهَا، وتصديرُهَا، واستيرادُهَا، فماذا كانت النتيجة؟
لقد دلَّت الإحصائياتُ للمدَّةِ الواقعةِ بين سَنِّ القانون سنة ١٩٣٠، وشهر أكتوبر سنة ١٩٣٣، أنَّه قُتِلَ في سبيلِ تنفيذِ القانون مئتا نفسٍ، وحُبِسَ نصفُ مليون شخصٍ، وغرم المخالفون للقانون غراماتٍ بلغت ما يقربُ من أربعةِ ملايين دولار، وصُودرت أموالٌ بسببِ مخالفتِهِ قُدِّرت بألف مليون دولار.
وكان آخر المطاف أن قامت الحكومةُ الأمريكيةُ بإلغاءِ قانونِ تحريمِ الخمرِ في أواخر سنةِ ١٩٣٣، ولم تستطع تلك الدعاياتُ الضخمةُ التي قامت بها الدولةُ أن تُوجد الأساسَ الذي يرتكز عليه القانون في نفوسِ المواطنين وبالتالي قاموا بمخالفتِهِ مما حملَ الحكومةَ على إلغائِهِ؛ لأنَّ القانون لم يكن له سلطان على النفوس يحملها على احترامِهِ وطاعتِهِ، ومن ثَمَّ فشلَ وأُلغيَ.
أمَّا كلمة: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾، التي نزل بها القرآنُ [المائدة:٩٠] فقد أثَّرت أعظمَ التأثير، وطُبِّقت أروعَ التطبيقِ، وأُريقت الخمورُ من قِبَلِ أصحابِها وامتنعوا عنها، لا بقوةِ شرطيٍّ، ولا بسطوةِ جنديٍّ ولا رقيبٍ، ولكن بقوةِ الإيمانِ وطاعةِ المسلمين لشرائعِ الإسلامِ، واحترامهم لها. [أصول الدعوة (ص٤٨)، بتصرُّف].

خامسها: تثبيتُ قلوبِ المؤمنين وتسليحهم بعزيمةِ الصبرِ واليقين، بسببِ ما كان يقصُّه القرآنُ عليهم الفَيْنَةَ بعد الفَيْنَةِ والحينَ بعد الحينِ، من قصصِ الأنبياءِ والمرسلين، وما كان لهم ولأتباعهم مع الأعداء والمخالفين، وما وَعَدَ الله به عبادَه الصالحين، من النصر والأجر والتأييدِ والتمكين»[١].

وعن أبي هريرةَ ﵁ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**إنَّما العلمُ بالتَّعَلُّم، والحِلمُ بالتَّحَلُّمِ، ومَن يَتَحرَّ الخيرَ يُعطَهُ، ومَن يَتَوقَّ الشَّرَّ يُوقهُ**» أخرجه الخطيب في تاريخه، وغيره بإسناد آخر، وذكره الألباني في الصحيحة رقم (٣٤٢).

قال الحافظ ﵀: «معنى الحديث: ليس العلمُ المعتبرُ إلا المأخوذ من الأنبياء وورثتهم على سبيل التعلُّم»[٢].

وإذا كان العلمُ بالتَّعَلُّمِ كما أخبر الصادقُ المصدوقُ ﷺ فإنَّه يكون شيئًا بعد شيءٍ، وفي وقتٍ بعد وقتٍ.

وكان علماءُ هذه الأمَّةِ -رحمهم الله- يفهمون هذا الأمرَ على وجهه، ويأمرون به، ويوجِّهون إليه مَن يأخذ العلمَ عنهم.

أخرج الخطيبُ ﵀ بسنده عن حصين قال: «جاءت امرأةٌ إلى حَلقَةِ أبي حنيفةَ وكان يُطيل الكلامَ، فسألته عن مسألةٍ له ولأصحابهِ فلم يُحسنوا فيها شيئًا من الجواب، فانصرفت إلى حمَّادِ بن أبي سليمان، فسألته فأجابها، فرجعت إليه فقالت: غَرَرْتُمُوني، سمعتُ كلامَكُم، فلم تحسنوا شيئًا، فقام أبو حنيفة فأتى حمَّادًا فقال له: ما جاء بك؟ قال: أطلبُ الفقهَ، قال: تعلَّم كلَّ يومٍ ثلاثَ مسائل ولا تزد عليها شيئًا حتى يتفق لك شيءٌ من العلمِ. فتعلم ولَزِمَ الحلقةَ حتى فقه، فكان الناسُ يشيرون إليه بالأصابع».

قال الخطيب ﵀: «فينبغي له -أي: للمبتدئ بالتَّفَقُّهِ- أن يتثبَّتَ في الأخذِ ولا يُكثر، يأخذ قليلاً قليلاً حسب ما يحتمله حفظه، ويقرب من فهمه، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَقَالَ

(١) مناهل العرفان (١/ ٥٥).

(٢) فتح الباري (١/ ١٩٤).

ﵟٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﵞ [الفرقان:٣٢]»[١].

وقال الزَّرنُوجيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان الشيخ الإمامُ الأستاذُ شرف الدين العَقيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: الصَّوابُ عندي في هذا -أي: في السبقِ والتلقِّي-، ما فعله مشايخُنا -رحمهم الله- فإنَّهم كانوا يختارون للمُبتدئِ صِغَارَ المبسوطَاتِ؛ لأنَّه أقربُ إلى الفهم والضَّبطِ وأبعدُ عن الملالةِ وأكثرُ وقوعًا بين النَّاسِ.

وينبغي ألَّا يكتب المتعلِّمُ شيئًا لا يفهمه، فإنَّه يُورِثُ كلالَةَ الطَّبعِ، ويُذهبُ الفِطْنَةَ ويُضيِّعُ أوقاتَهُ.

وينبغي أن يجتهدَ في الفهم من الأستاذ بالتَّأمُّلِ والتفكُّر، وكَثْرَةِ التكرارِ، فإنَّه إذا قلَّ السَّبقُ[٢]، وكَثُرَ التكرارُ والتأمُّلُ يُدرَكُ ويُفْهَمُ.

قيل: حِفظُ حرفَين خيرٌ من سَمَاعِ وِقرَين[٣]، وَفَهمُ حرفين خيرٌ من حِفظِ وِقرَين»[٤].

وقال الغزَاليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «على طالبِ العلمِ ألَّا يخوضَ في فنٍّ من فنونِ العلمِ دفعةً، بل يراعي الترتيبَ ويبتدئ بالأهمِّ، فإنَّ العمرَ إذا كان لا يتسع لجميع العلومِ غالبًا، فالحزم أن يأخذَ من كلِّ شيء أحسنَهُ.

وعليه ألَّا يخوضَ في فنٍّ حتَّى يستوفي الفنَّ الذي قبله، فإنَّ العلومَ مرتَّبةٌ ترتيبًا ضروريًّا، وبعضها طريقٌ إلى بعضٍ، والموفَّقُ مَن راعى ذلك الترتيبَ والتدريجَ»[٥].

وليس التدرُّجُ في العلمِ أن يقصُرَ طالبُ العلمِ نفسَه على التدرُّجِ في النظرِ في تفريعِ المفرِّعين على كتبِ الشيوخِ.

---

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ١٠٠).

(٢) **السَّبقُ**: هو القدر الذي يلتزمه المتعلم من علومه، وهو هنا المقروءُ في الدَّرسِ.

(٣) مثنى وقر -بكسر الواو-: وهو الحملُ الثقيلُ.

(٤) تعليم المتعلم (ص٣٣).

(٥) إحياء علوم الدين (١/ ٥٣).

فإنَّه ممَّا أضرَّ بالعلم وأهلِهِ، كثرةُ تفريعِ المؤلفين المتأخرين على كتبِ أصولِ العلم التي حرَّرها الشيوخُ، ممَّا صرفَ أكثر طلبةِ العلمِ إلى تضييعِ العمر في هذه التفريعاتِ دون الأخذِ بِلُبِّ اللُّبَابِ، والوقوعِ على حقيقةِ الثمرِ المستطابِ.

وقديمًا شكا ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ **من ذلك فقال:** «اعلم أنَّه ممَّا أضرَّ بالنَّاسِ في تحصيلِ العلمِ والوقوفِ على غاياته كثرةُ التآليفِ واختلافُ الاصطلاحاتِ في التعليم وتعدُّدُ طرقها، ثمَّ مطالبةُ المتعلمِ والتلميذ باستحضار ذلك، وحينئذٍ يسلم له منصبُ التحصيل.

فيحتاجُ المتعلِّمُ إلى حفظها كلِّها أو أكثرها ومراعاة طرقها، ولا يفي عمره بما كُتب في صناعة واحدة إذا تجرَّد لها، فيقعُ القصورُ -ولابُدَّ- دون رتبةِ التحصيل.

ويمثَّلُ ذلك من شأنِ الفقهِ في المذهبِ المالكيِّ بكتابِ المُدَوَّنَةِ مثلاً وما كُتب عليه من الشروحاتِ الفقهيةِ مثل كتاب ابن يونس، واللخميِّ، وابن بشير، والتنبيهاتِ والمقدماتِ والبيانِ والتحصيل على العتبية، وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كُتب عليه.

ثُمَّ إنَّه يحتاجُ إلى تمييز الطريقة القيروانيةِ من القرطبيةِ والبغداديةِ والمصريةِ وطرقِ المتأخرين عنهم، والإحاطة بذلك كلِّه، وحينئذٍ يسلم له منصبُ الفُتْيَا، وهي كلُّها متكررةٌ والمعنى واحدٌ، والمتعلِّمُ مطالبٌ باستحضارِ جميعها وتمييز ما بينها، والعمرُ ينقضي في واحدٍ منها.

ولو اقتصر المعلِّمون بالمتعلِّمين على المسائل المذهبيةِ فقط لكان الأمرُ دون ذلك بكثيرٍ، وكان التعليمُ سهلاً، ومأخذهُ قريبًا، ولكنَّه داءٌ لا يرتفع لاستقرارِ العوائد عليه، فصارت كالطبيعةِ التي لا يمكن نقلُها ولا تحويلُها.

ويمثَّلُ ذلك أيضًا علمُ العربيةِ من كتابِ سيبويه، وجميعِ ما كُتب عليه، وطرقِ البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين ومَن بعدهم، وطُرُقِ المتقدِّمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كُتب في ذلك، وكيف يُطالبُ به المتعلِّمُ وينقضي عُمرهُ دونه ولا يطمع أحدٌ في الغايةِ منه إلا في القليلِ النادر؛ مثل ما وصل إلينا بالمغربِ

لهذا العهدِ من تأليفِ رجلٍ من أهلِ صناعةِ العربيةِ من أهلِ مصرَ يُعرف بابن هشام[١] ظهر من كلامه فيها أنَّه استولى على غايةٍ من مَلَكَةِ تلك الصناعةِ لم تحصل إلا لسيبويه وابن جنِّي وأهلِ طبقتهما لِعِظَمِ مَلَكَتِهِ وما أحاطَ به من أصولِ ذلك الفنِّ وتفاريعه وحُسنِ تصرُّفِهِ، ودلَّ ذلك على أن الفضلَ ليس منحصرًا في المتقدِّمين سيَّما مع ما قدَّمناه من كثرةِ الشواغبِ بتعدُّد المذاهبِ والطُّرُق والتآليفِ؛ ولكنَّ فضلَ الله يُؤتيه مَن يشاء، وهذا نادرٌ من نوادرِ الوجودِ، وإلا فالظاهرُ أنَّ المتعلِّمَ ولو قطعَ عمرَهُ في هذا كلِّه فلا يفي له بتحصيلِ علمِ العربيةِ مثلاً الذي هو آلةٌ من الآلاتِ ووسيلةٌ ، فكيف يكون في المقصودِ الذي هو الثمرة، ولكنَّ الله يهدي مَن يشاء»[٢].

وفي مثل الدُّرِّ المنظومِ في سلكِهِ، يصوغُ ابنُ خلدون رَحِمَهُ اللهُ فصلاً عظيمَ الخَطَرِ جمَّ النفعِ، حريٌّ بكلِّ مَن تصدَّى للتعليمِ أن يفهمه حقَّ فهمه، وينزله من نفسه المنزلةَ التي يستحقُّها، والتي هو بها حَرِيٌّ ولها أهلٌ.

يقول ابن خلدون رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أنَّ تلقينَ العلومِ للمتعلمين إنَّما يكون مفيدًا إذا كان على التدريج شيئًا فشيئًا وقليلاً قليلاً، يلقي عليه أولاً: مسائل من كلِّ بابٍ من الفنِّ هي أصولُ ذلك الباب، ويقرِّبُ له في شرحها على سبيل الإجمال، ويُراعي في ذلك قوَّة عقله واستعداده لقبول ما يَرِدُ عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفنِّ، وعند ذلك يحصل له مَلَكَةٌ في ذلك العلمِ؛ إلا أنَّها جزئيةٌ وضعيفةٌ، وغايتها أنَّها هيَّأته لفهمِ الفنِّ ثانيةً فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرحَ والبيانَ، ويخرج عن الإجمالِ، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفنِّ، فتجودَ مَلَكَتُهُ.

---

(١) هو: العلامَةُ الإمام أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري، ولد في القاهرة في ذي القعدة عام ثمان وسبعمئة من الهجرة، وتوفي رَحِمَهُ اللهُ في ذي القعدة سنة إحدى وستين وسبعمئة من الهجرة، ومن مؤلفاته: شرح قطر الندى وبل الصدى، وشرح شذور الذهب، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، وغيرها كثير.

(٢) مقدمة ابن خلدون (ص٥٠٠).

ثُمَّ يرجعُ به وقد شَدَا[١]، فلا يترك عويصًا ولا مُبْهَمًا ولا مُعَلَّقًا إلا وضَّحه وفتحَ له مُقفَلَهُ؛ فيخلص من الفنِّ وقد استولى على مَلَكَتِهِ.

هذا وجهُ التعليمِ المفيدِ، وهو كما رأيتَ إنَّما يحصل في ثلاثةِ تكراراتٍ، وقد يحصلُ للبعضِ في أقلَّ من ذلك بحسب ما يُخلقُ له ويتيسَّرُ عليه.

وقد شاهدنا كثيرًا من المعلِّمين لهذا العهدِ الذي أدركنا يجلهون طرقَ التعليمِ وإفادتِهِ، ويحضرون للمتعلِّمِ في أوَّلِ تعليمه المسائِلَ المقفلَةَ من العلمِ ويطالبونه بإحضارِ ذهنِهِ في حَلِّها، ويحسبون ذلك مِرَانًا على التعليمِ وصوابًا فيه، ويكلِّفونه وَعيَ ذلك وتحصيلَه، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعدَّ لفهمها.

فإنَّ قبولَ العلمِ والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجًا، ويكون المتعلِّمُ أولَ الأمرِ عاجزًا عن الفهمِ بالجملةِ إلا في الأقلِّ وعلى سبيل التقريبِ والإجمالِ وبالأمثلةِ الحسِّيَّةِ.

ثُمَّ لا يزال الاستعدادُ فيه يتدرَّجُ قليلاً قليلاً بمخالفةِ مسائل ذلك الفنِّ وتكرارِها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتمَّ الملكَةُ في الاستعدادِ ثمَّ في التحصيلِ، ويحيط هو بمسائل الفنِّ.

وإذا أُلقيت عليه الغاياتُ في البدايات، وهو حينئذٍ عاجزٌ عن الفهمِ والوعي، وبعيدٌ عن الاستعدادِ له كَلَّ ذهنُه عنها، وحَسِبَ ذلك من صعوبةِ العلمِ في نفسهِ فتكاسلَ عنه، وانحرفَ عن قبوله، وتمادى في هجرانه، وإنَّما أتى ذلك من سوء التعليم.

ولا ينبغي للمعلِّم أن يزيد متعلِّمه على فهمِ كتابه الذي أكبَّ على التعليمِ منه بحسب طاقته، وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئًا كان أو منتهيًا، ولا يخلط مسائل الكتابِ بغيرها حتى يَعيَهُ من أوَّلِه إلى آخرِهِ، ويحصِّلَ أغراضَه ويستولي منه على مَلَكَةٍ بها ينفذ في غيره.

لأنَّ المتعلِّمَ إذا حصَّلَ مَلَكَةً ما في علمٍ من العلوم استعدَّ بها لقبولِ ما بقي،

---

(١) شَدَا: أخَذَ طَرَفًا من العلم والأدب.

وحصلَ له نشاطٌ في طلبِ المزيدِ والنهوضِ إلى ما فوق، حتَّى يستولي على غايات العلمِ، وإذا خُلط عليه الأمرُ عجزَ عن الفهم، وأدركه الكلالُ، وانطمس فكره، ويئس من التحصيل، وهجرَ العلمَ والتعليمَ، والله يهدي مَن يشاء.

وكذلك ينبغي للمعلِّم ألا يطوِّلَ على المتعلِّمِ في الفنِّ الواحدِ بتفريق المجالسِ وتقطيع ما بينها؛ لأنَّه ذريعةٌ إلى النسيانِ وانقطاع مسائلِ الفنِّ بعضها من بعضٍ، فيعسر حصولُ الملَكَةِ بتفريقها.

وإذا كانت أوائلُ العلمِ وأواخرُهُ حاضرةً عند الفكرةِ مجانبةً للنسيان كانت الملَكَةُ أيسرَ حصولاً وأحكمَ ارتباطًا وأقربَ صبغةً؛ لأنَّ الملَكَاتِ إنَّما تحصلُ بتتابعِ الفعل وتكراره، وإذا تُنوسي الفعلُ تُنوسيت الملَكَةُ الناشئةُ عنه، والله علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ومن المذاهب الجميلة والطرقِ الواجبةِ في التعليم: ألا يُخلطَ على المتعلِّم علمان معًا؛ فإنَّه حينئذٍ قلَّ أن يظفرَ بواحدٍ منهما، لما فيه من تقسيمِ البالِ وانصرافهِ عن كلِّ واحدٍ منهما إلى تفهُّمِ الآخرِ، فيستغلقان معًا ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة، وإذا تفرَّغَ الفكرُ لتعليمِ ما هو بسبيله مقتصرًا عليه، فربَّما كان ذلك أجدر بتحصيله، والله سُبحانه وتعالى الموفِّقُ للصوابِ»[1].

بهذا البيانِ الشفيفِ، والمنطقِ المحكَمِ السديد، وضعَ ابنُ خلدونَ رحمه الله أصولَ التربيةِ في إطارها النهائي، وقعَّدَ القواعدَ وأرسى الدعائمَ التي وجد مادَّتها في كتابِ الله عز وجل وفي سُنَّةِ نبيه صلى الله عليه وسلم.

وهاهم أولاء علماءُ التفسير يذكرون وجهًا من وجوه التفسير في قول الله عز وجل: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩]. أنَّ الربانيِّين: هم الذين يربُّون النَّاسَ بصغارِ العلمِ قبلَ كبارِهِ.

(١) مقدمة ابن خلدون (ص٥٠٢).

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الربَّانِيُّونَ واحدهم ربَّانِيٌّ منسوب إلى الرَّبِّ، والرَّبَّانِيُّ الذي يُرَبِّي النَّاسَ بصغار العلم قبل كباره؛ وكأنَّه يقتدي بالرَّبِّ سبحانه في تيسير الأمور؛ رُوِي معناه عن ابن عباس»[١].

وأخرجَ البخاريُّ في صحيحه تعليقًا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾: حُكَمَاءَ فُقَهَاءَ. ويُقَالُ: الرَّبَّانِي الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغارِ العلمِ قَبلَ كِبَارِهِ.

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: (وقال ابن عباس) هذا التعليقُ وصله ابن أبي عاصم أيضًا بإسنادٍ حَسَنٍ، والخطيبُ بإسنادٍ آخر حسن. وقد فسَّرَ ابن عباس (الربَّانيُّ) بأنَّه الحكيمُ الفقيهُ، ووافقه ابن مسعودٍ فيما رواه إبراهيم الحربي في غريبه عنه بإسنادٍ صحيحٍ، وقال الأصمعيُّ والإسماعيليُّ: الرَّبَّانيُّ نسبةٌ إلى الربِّ، أي الذي يقصد ما أمره الرَّبُّ بقصده من العلمِ والعملِ، وقال ثعلب: قيل للعلماءِ: ربانيون؛ لأنهم يربون العلم أي: يقومون به، وزيدت الألفُ والنونُ للمبالغة.

والحاصل: أنَّه اختُلف في هذه النسبةِ هل هي نسبةٌ إلى الربِّ أو إلى التربيةِ، والتربيةُ على هذا للعلمِ، وعلى ما حكاه البخاريُّ لتعلُّمِهِ.

والمرادُ بصغارِ العلمِ: ما وَضَحَ من مسائله، وبكباره: ما دقَّ منها.

وقيل: يعلِّمهم جزئياتِهِ قبل كُلِّياتِه، أو فروعَه قبل أصوله[٢]، أو مقدِّماته قبل مقاصده.

وقال ابن الأعرابي: لا يُقال للعالِـمِ: رباني حتى يكون عالِـمًا معلِّمًا عاملاً»[٣].

ولقد راعى علماءُ الأمَّة -رحمهم الله- ممَّن يقتدي بالنبيِّ ﷺ - أصولَ التربيةِ التي وضَّحها الكتابُ وبيَّنتها السُّنَّةُ، أو استنبطها العلماءُ منهما، مراعاةً تامَّةً.

---

(١) تفسير القرطبي (ص١٣٦٤).

(٢) ليس المراد من الفروع والأصول ما يُفهم من مصطلحات المتأخرين من أصحاب الأصول والفروع، وإنما يشرح الأصول والفروع قوله بعدها: «أو مقدماته قبل مقاصده» فليكن هذا على ذُكْرٍ منك أبدًا.

(٣) فتح الباري (١/ ١٩٥).

وكان هذا المنهاجُ سبيلَ السلفِ الصالحِ -رحمهم الله- عليه يسيرون، وبه إلى الغايةِ المنشودةِ يصلون، وإليه يرشدون طلابَ العلمِ الشرعي، وعليه يحملون.

قال أبو عمر بن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «طلب العلمِ درجاتٌ ومناقلُ ورتبٌ لا ينبغي تعدِّيها، فمن تعدَّاها جملةً فقد تعدَّى سبيلَ السَّلَفِ -رحمهم الله- ومن تعدَّى سبيلهم عامدًا ضلَّ، ومَن تعدَّاه مجتهدًا زلَّ.

فأَوَّلُ العلمِ: حفظُ كتاب الله -جلَّ وعزَّ- وتَفَهُّمُهُ، وكلُّ ما يعين على فهمه فواجبٌ طَلَبُهُ معه، ولا أقول: إنَّ حفظَه كلَّه فرضٌ، ولكن أقول: إن ذلك واجبٌ لازمٌ على مَن أَحَبَّ أن يكون عالِمًا ليس من بابِ الفرضِ.

فعن الضَّحَّاكِ في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [آل عمران: ٧٩] قال: حقٌّ على كلِّ مَن تعلَّم القرآنَ أن يكون فقيهًا، فمَن حفظه قبل بلوغه ثمَّ تفرَّغَ إلى ما يستعين به على فهمه من لسان العربِ، كان له ذلك عونًا كبيرًا على مرادِهِ منه ومن سننِ رسولِ الله ﷺ.

ثُمَّ ينظرُ في ناسخِ القرآن ومنسوخِهِ وأحكامِهِ، ويقف على اختلافِ العلماءِ واتفاقهم في ذلك، وهو أمرٌ قريبٌ على من قرَّبه الله عليه، ثمَّ ينظر في السُّنَنِ المأثورةِ الثابتةِ عن رسولِ الله ﷺ، بها يصلُ الطالبُ إلى مرادِ الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابِهِ، وهي تفتحُ له أحكامَ القرآنِ فتحًا.

ومَن طَلَبَ السُّنَنَ فليكن معوَّلُهُ على حديثِ الأئمةِ الثقاتِ الحفَّاظِ الذين جعلهم الله خزائنَ لعلمِ دينه، وأمناءَ على سننِ رسولِ الله ﷺ»[1].

فعلى مَن سعى في خلاصِ نفسه من النيرانِ أن ينظرَ في كتاب الله تعالى نظرَ إدمانِ فكرٍ، وإخلاصِ عملٍ؛ ثمَّ عليه أن يتحرَّى اتباع النبي ﷺ في شأنه كله، وما في الكتبِ المصنفةِ كصحيحي البخاري ومسلم -رحمها الله- صحةَ إسنادٍ، وبيانَ سُنَّةٍ، وجودةَ تصنيفٍ.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (ص٤٦٣).

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما في الكتب المصنَّفةِ المبَوَّبَةِ كتابٌ أنفعَ من (صحيح محمد بن إسماعيل البخاري)، لكن هو وحده لا يقوم بأصول العلم، ولا يقوم بتمامِ المقصودِ للمتبحِّرِ في أبواب العلم، إذ لابُدَّ من معرفة أحاديثَ أُخَر، وكلامِ أهلِ الفقهِ وأهل العلمِ في الأمورِ التي يختصُّ بعلمها بعضُ العلماء، وقد أوعبت الأمة في كلِّ فنٍ من فنونِ العلمِ إيعابًا، فمَن نوَّرَ الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك، ومَن أعماه لم تزده كثرةُ الكتبِ إلا حيرةً وضلالاً»[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يَـا مَـنْ يُـرِيدُ نَجَاتَـهُ يَـومَ الحِـسَا ... بِ مِـنَ الجَحِـيمِ ومُـوقَدِ الـنيرَانِ

اتْـبَعْ رَسُـولَ الله في الأقْـوَالِ وَالأ ... عْمَـالِ لا تَخْـرُجْ عَـنِ القُـرْآنِ

وَخُـذِ الـصَّحِيحَينِ اللَّـذَينِ هُمَـا ... لِعقْـدِ الـدِّينِ والإيْمَـانِ وَاسِـطَتَانِ

وَاقْـرَأهُمَا بَعْـدَ التَّجَـرُّدِ مِـن هَـوىً ... وَتَعَـصُّبٍ وَحَمِـيَّةِ الـشَّيْطَانِ

واجْعَلْهُمَـا حكَمًـا ولاَ تَحكُـم عَلَـىٰ ... مَـا فِـيهِما أصـلاً بِقَـولِ فُـلانِ

واجْعَـل مَقَالَـتَهُ كَـبَعضِ مَقَالَـةِ الأ ... شْـيَاخِ تَنْـصُرُهَا بِكُـلِّ أوَانِ

وَانْـصُرْ مَقَالَـتَهُ كَنَـصْرِكَ للـذي ... قَلَّدْتَـهُ مِـن غَـيرِ مَـا بُـرْهَانِ

قَـدِّرْ رَسُـولَ الله عِـندَك وَحْـدَهُ ... والقَـوْلُ مِـنهُ إلَـيكَ ذُو تِبْـيَانِ

مَـاذَا تَـرَىٰ فَرضًـا علَـيْكَ مُعَيَّـنًا ... إن كُـنْتَ ذَا عَقْـلٍ وذَا إيْمَـانِ

عَـرضَ الَّـذِي قَالُـوا عَلَـىٰ أقْـوَالِهِ ... أو عَكْـسَ ذَاكَ فَـذَانِكَ الأمـرَانِ

هِـيَ مَفْـرِقُ الطُّـرُقَاتِ بَـينَ طَـرِيقنا ... وَطَـرِيقِ أهـلِ الـزَّيغِ والعُـدْوَانِ

وبيَّن الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ **تدرُّجَ طالبِ علمي الكتابِ والسُّنَّةِ في دراسةِ سُنَّةِ**

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٦٥).

النبي ﷺ من حيث تقديم الأهمِّ فقال: «ينبغي للطالبِ أن يقدِّمَ الاعتناءَ بالصحيحين، ثمَّ بالسُّنَنِ، كسُنَنِ أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وصحيحي ابن خزيمة وابن حبَّان، والسُّنن الكبرى للبيهقي؛ وهو أكبرُ كتابٍ في أحاديثِ الأحكامِ، ولم يصنَّف في بابه مثلهُ، ثمَّ بالمسانيد، وأهمُّها مسند أحمد بن حنبل، ثمَّ بالكتبِ الجامعةِ المؤلَّفَةِ في الأحكامِ، وأهمُّها مُوَطَّأُ مالكٍ، ثمَّ كتب ابن جريج، وابن أبي عروبة، وسعيد ابن منصور، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، ثم كتب العِلَلِ، ثمَّ يشتغل بكتبِ رجالِ الحديثِ وتراجمهم وأحوالهم، ثمَّ يقرأ كثيرًا من كتب التاريخ وغيرها»[1].

وقال أبو عمر بن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم يا أخي أنَّ السُّنةَّ والقرآنَ هما أصلُ الرأي والعِيَارُ عليه، وليس الرأيُ بالعيَارِ على السنةِ، بل السنةُ عيارٌ عليه، ومَن جهل الأصلَ لم يصل الفرعَ أبدًا.

فعليك يا أخي بحفظِ الأصولِ والعنايةِ بها، واعلم أنَّ مَن عُني بحفظ السُّنَنِ والأحكامِ المنصوصةِ في القرآنِ، ونظر في أقاويلِ الفقهاء، فجعله عونًا له على اجتهادِهِ ومفتاحًا لطرائقِ النظرِ، وتفسيرًا لجُمَلِ السُّنَنِ المحتملةِ للمعاني، ولم يقلِّد أحدًا منهم تقليدَ السُّنَنِ التي يجب الانقيادُ إليها على كلِّ حالٍ دون نظر، ولم يُرِح نفسه مِمَّا أخذَ العلماءُ به أنفسَهم من حفظ السُّنَنِ وتدبُّرِهَا، واقتدى بهم في البحثِ، والتَّفَهُّمِ والنظرِ وشكر لهم سعيهم فيما أفادوه ونَّبهوا عليه، وحَمِدَهُم على صوابهم الذي هو أكثر أقوالهم، ولم يبرِّئهم من الزللِ كما لم يبرِّئوا أنفسَهم منه، فهذا هو الطالبُ المتمسِّكُ بما عليه السَّلَفُ الصالحُ، وهو المصيبُ لحظِّه والمعاينُ لرشدِهِ، والمتَّبعُ لسنَّةِ نبيِّهِ ﷺ، وهدى أصحابِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

ومن أعفى نفسه من النظر، وأضرب عمَّا ذكرنا، وعارض السُّنَنَ برأيه، ورام أن يردَّها إلى مبلغ نظره، فهو ضالٌّ مُضِلٌّ، ومَن جَهِلَ ذلك كلَّه أيضًا، وتَقَحَّمَ في الفتوى

(١) الباعث الحثيث (ص١٣٤).

بلا علمٍ، فهو أشدُّ عمىً وأضلُّ سبيلاً»[١].

ووضَّح أبو عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ **ما يريد (بالأصولِ) التي أمر بحفظِهَا والعنايةِ بهَا، فقالَ:**

«وأمَّا أصولُ العلمِ: فالكتابُ والسُّنَّةُ: وتنقسم السُّنَّةُ قسمين[٢]:

أحدهما: إجماعٌ تنقله الكافَّةُ عن الكافَّةِ، فهذا من الحجَجِ القاطعةِ للأعذارِ إذا لم يوجد هناك خلافٌ، ومَن ردَّ إجماعهم فقد ردَّ نصًّا من نصوصِ الله يجب استتابته عليه، وإراقَةُ دمِه إن لم يتب لخروجه عمَّا أجمع عليه المسلمون وسلوكه غير سبيلِ جميعهم.

والضربُ الثاني من السُّنَّةِ: خَبرُ الآحادِ الثِّقَاتِ الأثباتِ المتصلُ الإسنادِ، فهذا يوجب العملَ عند جماعةِ علماء الأمةِ الذين هم الحُجَّةُ والقُدوةُ، ومنهم مَن يقول: إنَّه يُوجبُ العلمَ والعملَ جميعًا»[٣].

قلتُ: كَونُ حديث الآحاد يُوجب العلمَ والعملَ جميعًا هو الصوابُ إن شاء الله تعالى، ومَن أرادَ مَزِيدَ بحثٍ فلينظر رسالةَ الشيخ الألبانيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديث الآحاد.

وممَّا ينبغي أن يُعنى به عنايةً تامَّةً: علمُ العربيةِ، إذ هو المدخلُ لفهم مرادِ الله عَزَّوَجَلَّ من كتابه، وفهم مراد النبيِّ ﷺ في بيانه.

ومن العجبِ أنَّ أقوامًا يدَّعون نسبتهم إلى سَلَفِ هذه الأمَّةِ الصالحِ وهم لا يُحكمون هذا الأصلَ؛ لأنَّهم لا يبالون به، بل ربَّما زيَّنت لهم أهواؤهم - أو قل: ضعفُهم- أن يصرفوا الناشئة عن إحكامِ هذه الأصولِ، بُحجَّةِ أنَّها تقسِّي الأفئدةَ، وتصرفُ عن الورعِ القلوبَ، وهذا -وربُّ العبيدِ- من الضلال البعيدِ والزيغِ الشديدِ.

---

(١) جامع بيان العلم (ص٤٧٠).

(٢) هذا التقسيم للسنة على اعتبار وصولها إلينا، فإنها بهذا الاعتبار تنقسم قسمين: متواتر وآحاد، والمتواتر هو: ما رواه عدد كثير تحيل العادة تواطؤهم على الكذب، وشروطه: أن يرويه عددٌ كثيرٌ -المختار أنه عشرةٌ- وأن توجد الكثرة في جميع طبقات السند، وأن تُحيل العادةُ تواطؤهم على الكذب، وأن يكون مستند خبرهم الحس، والآحادُ هو: ما لم يجمع شروط المتواتر.

(٣) جامع بيان العلم (ص٢٨٢).

ووجَّه الشيخُ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ **طُلابَ الحديثِ إلى دَرسِ اللغةِ والأدبِ فقالَ:**

«وعندي أنَّه ينبغي لطالب العلم المشتَغِلِ بالحديثِ أن يُكثر من درس الأدب واللغةِ حتى يُحسنَ فقهَ الحديثِ، وهو كلامُ أفصح العرب وأقومهم لسانًا ﷺ»[١].

ومن قبلُ حَضَّ على ذلك علماءُ السَّلَفِ -رحمهم الله- ووجهوا إليه.

قال أبو عمر بن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومِمَّا يُستعانُ به على فهمِ الحديثِ: ما ذكرناه من العونِ على كتابِ الله، وهو العلمُ بلسانِ العربِ ومواقعِ كلامِها وسَعَةِ لُغَتِهَا، واستعارَتِهَا ومجازِهَا، وعموم لفظ مخاطبتها وخصوصه، وسائرِ مذاهبها لمن قَدَرَ، فهو شيءٌ لا يُستغنى عنه.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتبُ إلى الآفاقِ أن يتعلَّموا السُّنَّةَ والفرائضَ واللَّحنَ، -يعني: النحو- كما يُتَعَلَّمُ القرآنُ.

وساق أبو عمر بسنده عن أبي عثمان قال: كان في كتاب عمر رضي الله عنه: تعَلَّمُوا العربيَّةَ.

وعن عمر بن زيد قال: كتبَ عمرُ إلى أبي موسى: أمَّا بعدُ، فتفقَّهوا في السُّنَّةِ، وتفقَّهوا في العربيَّةِ.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه كان يضربُ ولده على اللَّحنِ.

وقال الشَّعْبيُّ: النَّحوُ في العلمِ كالملحِ في الطعام.

وقال شُعْبَةُ: مَثَلُ الذي يتعلَّمُ الحديثَ ولا يتعلَّمُ النحوَ، مَثَلُ بُرْنُسٍ لا رأسَ له.

وقال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَن حَفِظَ القرآنَ عَظُمَت قيمتُه، ومَن طَلَبَ الفقه نَبُلَ قَدْرُهُ، ومَن كَتبَ الحديثَ قويت حُجَّتُه، ومَن نظر في النحوِ رَقَّ طبعهُ، ومَن لم يصن نفسَهُ لم يصنه علمُهُ»[٢].

ودُونَكَ علماء الإسلام، ومرشدي الأنامِ، مَن منهم لم يتضلَّع باللغةِ نحوًا وصرفًا، وشعرًا ونثرًا، حتى أصبح فيها حُجَّةً ومرجعًا يُرجع إلى قوله ويُصارُ إلى رأيه؟!

(١) الباعث الحثيث (ص٩١).

(٢) جامع بيان العلم (ص٤٦٤) والبرنسُ: كلُّ ثوبٍ رأسُهُ منه، ملتزِقٌ به.

دُونَكَ هؤلاء الأعلام، فأت منهم بجاهلٍ بهذا الأصلِ، أو غير متمكِّنٍ فيه.

«**قال محمد بن الحسن الزعفراني**: ما رأيتُ أحدًا قطُّ أفصحَ ولا أعلمَ من الشافعي، كان أعلمَ النَّاسِ وأفصحَ النَّاسِ، وكان يُقرأ عليه من كلِّ الشِّعرِ فيعرفه، ما كان إلا بحرًا.

وعن الربيع بن سليمان قال: سمعت ابن هشام؛ صاحب المغازي، يقول: كان الشافعيُّ حُجَّةً في اللغة»[١].

وقال إبراهيم الحربي: «رأيتُ أحمد بن حنبل كأنَّ الله جمعَ له علم الأوَّلين والآخرِين».

وعن أحمد بن سعيد الرازي قال: «ما رأيتُ أسودَ الرأسِ أحفظَ لحديثِ رسولِ الله ﷺ، ولا أعلم بفقهه ومعانيه من أحمد بن حنبل».

وعن إسحاق بن راهويه رَحِمَهُ اللهُ **قال**: «كنتُ أجالسُ بالعراقِ أحمد بن حنبل، ويحيى ابن معين وأصحابنا، وكنا نتذاكر الحديثَ من طريقين وثلاثة، فيقول يحيى من بينهم: وطريق كذا، فأقول: أليس قد صحَّ هذا بإجماعٍ منَّا؟ فيقولون: نعم، فأقول: ما تفسيره؟ ما فقهه؟ فيقفون كلُّهم إلا أحمد بن حنبل».

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «لم يزل من إبَّانِ صِغَرِه مستغرقَ الأوقاتِ في الجِدِّ والاجتهادِ، وختم القرآنَ صغيرًا، ثمَّ اشتغل بحفظ الحديثِ والفقهِ والعربيةِ حتى برع في ذلك مع ملازمته مجالسَ الذِّكرِ وسماعِ الحديثِ والآثار.

وأقبل على الفقه وقرأ في العربيةِ، وأخذ يتأمَّل كتاب سيبويه حتى فهمه وبرع في النحو.

وقال أبو حيان شيخُ النُّحَاة لما اجتمع بابن تيمية: ما رأت عيناي مثلَهُ»[٢].

وأورد ابن هشامٍ رَحِمَهُ اللهُ أوجُهَ القراءات في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه:٦٣]. فأثبت اثنتين، ثم قال: والثالثةُ (إنَّ) بالتشديد (هَذَانِ) بالألفِ، وهي مشكلةٌ؛ لأنَّ (إنَّ)

(١) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء (ص٩٢).

(٢) غاية الأماني (٢/ ١٥٥).

المشَدَّدَةَ يجب إعمالُها؛ فكان الظاهرُ الإتيان بالياءِ، وقد أُجيب عليها بأوجُهٍ؛ منها: أنَّه لما كان الإعرابُ لا يظهر في الواحدِ وهو (هذا) جُعل كذلك في التثنية؛ ليكون المثنى كالمفرد؛ لأنَّه فرعٌ عليه.

واختارَ هذا القولَ الإمامُ العلامةُ تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وزعم أن بناءَ المثنى إذا كان مفرده مبنيًّا أفصَحُ من إعرابهُ، قال: وقد تَفَطَّنَ لذلك غيرُ واحدٍ من حُذَّاقِ النُّحَاةِ»[1].

وابن هشامٍ الذي قال هذا القولَ في شيخ الإسلام ابن تيمية هو الذي قال فيه ابن خلدون رَحِمَهُ اللَّهُ: ما زلنا ونحن بالمغربِ نسمع أنَّه ظهر بمصر عالمٌ بالعربية يُقال له: ابن هشام، أنحى من سيبويه.

وقال فيه أيضًا: «إن ابن هشام على عِلمٍ جَمٍّ يَشْهَدُ بعُلُوِّ قدره في صناعةِ النَّحوِ، وكان يَنْحُو في طريقته مَنْحَاةَ أهلِ الموصِل الذين اقتَفَوا أثَرَ ابن جِني واتَّبعوا مصطلحَ تعليمه، فأتى من ذلك بشيءٍ عجيبٍ دَالٍّ على قوَّةِ مَلَكَتِهِ واطِّلاعِهِ».

ولو أنَّنَا أردنا أن نستقصي مقاماتِ علماءِ السَّلَفِ في لغةِ العربِ، لطال بنا الكلامُ جدًّا، ولكنَّنا ننبِّه بالبعضِ من ذلك؛ ليكون كالدلالةِ على كلِّهِ، والبرهان على جميعهِ، والشاهدِ على معظمِهِ.

فَمَن أرادَ اللهُ به خيرًا فتحَ له إلى هذه اللُّغةِ بابًا يفقه به كلامَ ربِّه ﷻ، وبيانَ نبيِّه ﷺ، ومَن لم يُرد به خيرًا صرفه عن ذلك أو صرفَ ذلك عنه؛ فأصبحَ يكتبُ غير الذي يسمعُ، ويفهم غير الذي يكتبُ، ويتكلَّمُ غير الذي يفهمُ، والله هو العاصم من السُّوءِ لا ربَّ على الحقيقة غيره، ولا إله بحقٍّ سواه.

فعلى طالبِ العلمِ أن يقدِّمَ العنايةَ بالقرآنِ حفظًا وفهمًا، وما يعين على ذلك الفهمِ من معرفةٍ بلسانِ العربِ، ثم أخذٍ بحظٍّ عظيمٍ من السُّنَنِ، وضَربٍ بسهمٍ وافرٍ فيها، وعليه أن

(١) شرح شذور الذهب (ص٤٩).

يبدأ بالصحيحين وشروحهما، ثم بالسُّنَنِ فالمسانيدِ؛ كما بيَّن الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وليحرص مع ذلك كلِّه على أن يكون له نصيبٌ في قولةِ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «اجمعوا هذه القلوبَ، وابتغوا لها طرائِفَ الحكمةِ؛ فإنَّها تملُّ كما تملُّ الأبدان». والموفَّقُ مَن وَفَّقَهُ الله تعالى.

قال ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «على طالب العلمِ أن يحذرَ في ابتداءِ أمره من الاشتغالِ في الاختلافِ بين العلماءِ أو بين النَّاسِ مطلقًا في العقلياتِ والسمعيَّاتِ؛ فإنَّه يحيِّرُ الذهنَ ويدهشُ العقلَ، بل يتقن أولاً كتابًا واحدًا في فنٍّ واحدٍ، أو كُتُبًا في فنونٍ إن كان يحتمل ذلك على طريقةٍ واحدةٍ يرتضيها له شيخه، فإن كانت طريقةُ شيخِهِ نقلَ المذاهب والاختلاف، ولـم يكن له رأي واحدٌ، قال الغزاليُّ: فليحذر منه، فإنَّ ضرَرَهُ أكثرُ من النفعِ به.

وكذلك يحذر في ابتداء طلبه من المطالعاتِ في تفاريق المصنَّفات، فإنَّه يضيِّعُ زمانه، ويفرِّقُ ذهنه، بل يعطي الكتابَ الذي يقرؤه أو الفنَّ الذي يأخذه كُلِّيَّتَهُ.

وكذلك يحذرُ من التنقُّل من كتابٍ إلى كتابٍ من غير موجبٍ، فإنَّه علامةُ الضَّجَرِ وعدم الإفلاحِ.

أمَّا إذا تحقَّقَتْ أهليتُهُ، وتأكَّدت معرفتُه، فالأولى ألا يَدَعَ فنًّا من العلوم الشرعيةِ إلا نظر فيه، فإن ساعده القَدَرُ وطولُ العمرِ على التَّبَحُّرِ فيه فذاك، وإلا فقد استفادَ منه ما يخرج به من عداوةِ الجهلِ بذلك العلم، ويعتني من كلِّ علمٍ بالأهمِ فالمهمِّ، ولا يغفلنَّ عن العمل الذي هو المقصودُ بالعلمِ»[1].

وبالجملة: فلستُ أرى قولاً أجمعَ للذي ذكرناه من أقوالِ الأئمةِ الأعلامِ في مراتب الطلبِ، من قول ابن شهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ليونس بن يزيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا يونسُ، لا تُكابر العلمَ، فإنَّ العلمَ أوديةٌ فأيُّهَا أخذتَ فيه قُطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي،

(١) تذكرة السامع والمتكلم (ص١١٦).

ولا تأخذ العلمَ جملةً، فإنَّ مَن رامَ أخذَهُ جملةً، ذهبَ عنه جملةً ولكنْ الشيءُ بعد الشيءِ مع الأيامِ والليالي»[١].

اللهُمَّ نعم، ما أصدقَ قولَ ابن شهابٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن رَامَ العلمَ جملةً ذهبَ عنه جملةً، ولكن الشيءُ بعد الشيءِ، مع الأيام والليالي».

❋ ❋ ❋

(١) جامع بيان العلم (ص١٣٨).

ثانيًا: طَرَائِقُ التَّحْصِيلِ

١- سبيلُ العلمِ الذي لا سبيلَ إليه غيره هو الإقلاعُ عن الذنوبِ والمعاصي، والإقبالُ على الله بالكُلِّـيَّـةِ:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «للمعاصي من الآثار القبيحةِ المذمومةِ، المضرَّةِ بالقلبِ والبدنِ في الدنيا والآخرةِ ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها: حرمانُ العلمِ، فإنَّ العلمَ نورٌ يقذفه الله في القلب، والمعصيةُ تطفئ ذلك النور.

ولما جلس الإمامُ الشافعيُّ بين يدي الإمامِ مالكٍ وقرأ عليه، أعجبه ما رأى من وفور فطنتهِ، وتوقُّدِ ذكائهِ، وكمالِ فهمِهِ، فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبكَ نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصيةِ.

وقال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

شَكَوْتُ إِلَىٰ وَكِيعٍ سُوءَ حِفظِي ... فَأَرشَدَنِي إِلَىٰ تَركِ المَعَاصِي

وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ العلمَ نُورٌ ... وَنُورُ الله لا يُهْدَىٰ لِعَاصِ»[١]

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «عن أبي عبد الله بن الجلَّاء قال: كنتُ أنظر إلى غلامٍ نصرانيٍّ حَسَنِ الوجه، فمرَّ بي أبو عبد الله البلخيُّ، فقال: إيشِ وقوفك؟ فقلتُ: يا عمُّ أمَا تَرى هذه الصورةَ، كيف تعذَّبُ بالنَّار؟! فضرب بيده بين كتفيَّ، وقال: لَتَجِدَنَّ غِبَّهَا ولو بعد حين. قال: فوجدت غِبَّها بعد أربعين سنةً أَن أُنسِيتُ القرآنَ.

وبإسنادٍ عن أبي الأديان قال: كنت مع أستاذي أبي بكر الدَّقَّاق، فمرَّ حَدَثٌ، فنظرتُ

(١) الجواب الكافي (ص٥٤).

إليه، فرآني أستاذي وأنا أنظر إليه، فقال: يا بنيَّ، لتجدنَّ غِبَّه ولو بعد حين، فبقيتُ عشرين سنةً وأنا أراعي فما أجد ذلك الغِبَّ، فنمتُ ذات ليلةٍ وأنا مفكِّرٌ فيه، فأصبحتُ وقد أُنسيتُ القرآن كُلَّه»(١).

قلتُ: الغِبُّ: العاقبةُ.

وقد كان الأئمَّةُ من الوَرَعِ بمحلٍّ رفيعٍ، وهذا حافظُ الأمَّةِ، البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان شديدَ الوَرَعِ جَمَّ الخوفِ كثير الإنابةِ.

فمن ذلك ما رواه وَرَّاقُ البخاري عنه قال: «كان يركبُ إلى الرَّمي كثيرًا، فما أعلمُ أنِّي رأيته في طولِ ما صحبته أخطأ سهمُهُ الهدفَ إلا مرتين، بل كان يصيبُ في كلِّ ذلك ولا يُسبق، قال: وركبنا يومًا إلى الرمي ونحن بِفِرَبر، فخرجنا إلى الدربِ الذي يؤدي إلى الفُرضة(٢)، فجعلنا نرمي، فأصاب سهمُ أبي عبد الله وَتِدَ القنطرة التي على النهر، فانشقَّ الوَتدُ، فلمَّا رأى ذلك نزل عن دابته، فأخرج السهم من الوتدِ وترك الرمي، وقال لنا: ارجعوا، فرجعنا، فقال لي: يا أبا جعفر، لي إليك حاجة، وهو يتنفَّس الصُّعَدَاءَ، فقلت: نعم، قال: تذهب إلى صاحبِ القنطرة فتقول: إنَّا أخللنا بالوتد، فنحبُّ أن تأذنَ لنا في إقامةِ بدله، أو تأخذ ثمنه وتجعلنا في حِلٍّ ممَّا كان منَّا.

وكان صاحبُ القنطرةِ حميد بن الأخضر، فقال لي: أبلغ أبا عبد الله السلامَ، وقل له: أنت في حِلٍّ ممَّا كان منك، فإنَّ جميعَ ملكي لك الفداء، فأبلغتُهُ الرسالةَ، فتهلَّلَ وجهُهُ وأظهر سرورًا كثيرًا، وقرأ ذلك اليوم للغرباءِ خمسَ مئةِ حديثٍ، وتصدَّق بثلاثِ مئةِ درهم».

وقال أيضًا: سمعتُه يقول لأبي معشر الضرير: اجعلني في حِلٍّ يا أبا معشر، فقال: من أيِّ شيء؟ فقال: رويتُ حديثًا يومًا فنظرتُ إليك، وقد أعجبتَ به، وأنتَ تحرِّكُ

---

(١) تلبيس إبليس (ص٢٧٧).

(٢) **الفُرضة**: الثُّلْمَةُ تكون في النهر.

رأسكَ ويديك، فتبسَّمتُ من ذلك، قال: أنتَ في حِلٍّ، يرحمك الله يا أبا عبد الله»[(١)].

وقال الحاكم أبو عبد الله الحافظ: «أخبرني محمد بن خالد: حدَّثنا مقسم بن سعد، قال: كان محمد بن إسماعيل البخاري إذا كان أول ليلة من شهر رمضانَ يجتمع إليه أصحابه فيصلِّي بهم، ويقرأ في كلِّ ركعةٍ عشرين آيةً، وكذلك إلى أن يختمَ القرآنَ، وكان يقرأ في السَّحَر ما بين النصفِ إلى الثُلُثِ من القرآنِ، فيختم عند السَّحَرِ في كلِّ ثلاثِ ليالٍ، وكان يختمُ بالنَّهارِ في كلِّ يومٍ ختمةً، ويكون ختمه عند الإفطارِ كلَّ ليلةٍ، ويقول: عند كلِّ ختمةٍ دعوةٌ مستجابةٌ»[(٢)].

فمداومةُ الطاعةِ، وتطليقُ المعصيةِ، حَتْمٌ لازمٌ لطالبِ العلمِ، وكيف لا والذنوبُ تفسدُ العقل وتذهب بنوره، وتمحقُ العلم وتُذهبُ بَركَتَهُ؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعاصي تفسدُ العقلَ، فإنَّ للعقلِ نورًا، والمعصية تُطفئ نورَ العقلِ ولابُدَّ، وإذا طُفِئ نورهُ ضعف ونقص.

وقال بعضُ السَّلَفِ: ما عصى الله أحدٌ حتَّى يغيبَ عقلُه، وهذا ظاهرٌ فإنَّه لو حضره عقلهُ لحجزه عن المعصيةِ وهو في قبضةِ الرَّبِّ تعالى، وتحت قهره، وهو مُطَّلِعٌ عليه وفي داره وعلى بساطِهِ، وملائكتهُ شهودٌ عليه ناظرون إليه، وواعظ القرآنِ ينهاه، وواعظُ الإيمان ينهاه، وواعظ الموتِ ينهاه، وواعظ النَّار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرةِ أضعافُ أضعافِ ما يحصل له من السرورِ واللَّذَّةِ بها، فهل يقدمُ على الاستهانةِ بذلك كلِّه والاستخفاف به ذو عقلٍ سليمٍ؟»[(٣)].

والعِلمُ يَدخُلُ قَلبَ كُلِّ مُوَفَّقٍ ... مِن غَيرِ أبوَابٍ وَلا استئذَانِ
وَيَرُدُّهُ المحرُومُ مِن خِذلانِهِ ... لا تُشْقِنَا اللَّهُمَّ بالحِرمَانِ

---

(١) هدي الساري (ص٥٠٤).

(٢) هدي الساري (ص٥٠٤).

(٣) الجواب الكافي (ص٦١).

٢- لابُدَّ لطالبِ العلمِ أن يغتنمَ التحصيلَ في الصِّغرِ:

ما أنْ مَنَّ الله على هذه الأمَّةِ بالإسلامِ حتَّى أصبحَ القرآنُ هو شغلها الشاغِل؛ تعلُّمًا وتعليمًا، وحَملاً وأداءً، وأصبحَ تعليمُهُ الولدانَ شعارًا من شعائرِ الدين، وسبيلاً من سُبُل التقرُّبِ إلى الله ربِّ العالمين.

قال ابن خلدون رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أنَّ تعليمَ الولدانِ للقرآنِ شِعَارٌ من شعائِرِ الدينِ، أخذ به أهلُ الملَّةِ، ودرجوا عليه في جميعِ أمصارِهم، لما يسبق فيه إلى القلوب مِن رسوخ الإيمانِ وعقائدهِ من آيات القرآن وبعض مُتُونِ الأحاديثِ.

وصَارَ القرآنُ أصلَ التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بَعدُ من المَلَكَاتِ؛ وسببُ ذلك أنَّ تعليمَ الصِّغَرِ أشدُّ رسوخًا، وهو أصلٌ لِـمَا بعده؛ لأنَّ السابقَ الأولَ للقلوبِ كالأساس للمَلَكَاتِ، وعلى حسبِ الأساسِ وأساليبه يكون حالُ ما يُبنى عليه»[١].

فابتداءُ التعليمِ في الصِّغَرِ -كما رأيتَ- أصبحَ شعارًا من شعائرِ الدين، وابتداءُ ذلك بالقرآن ابتداءٌ بالأصل الأصيل، واغتنامٌ للعمرِ قبل الرحيل، لأنَّ أحوالَ الصبي بعد ذلك في طلبِ العلمِ غيبٌ لا يعلمه إلا ربُّ القلوبِ وعلاَّمُ الغيوبِ، ومهما يكن الصبي في حجر أبويه فتوجيهه سهلٌ يسيرٌ، فإذا أُدِّبَ صغيرًا، فالأملُ في قُربِ فلاحِهِ قريبٌ، وإن عصفت به رياحُ الشبيبةِ فقد أخذ من القرآنِ ما يعصمه الله به يومًا من الدهرِ أن يزلَّ أو يزيغَ.

قال ابن خلدون رَحِمَهُ اللهُ **عن تعلُّمِ القرآنِ في الصِّغَر**: «وتقديمُ دراسةِ القرآنِ في الصِّغَرِ إيثارٌ للتبرُّكِ والثوابِ، وخشيةً ممَّا يعرضُ للولد في جنونِ الصِّبا من الآفاتِ والقواطعِ عن العلمِ، فيفوته القرآنُ؛ لأنَّه ما دام في الحجرِ[٢] منقادٌ للحكمِ، فإذا تجاوز البلوغَ وانحلَّ من ربقةِ القهرِ فربَّما عصفت به رياحُ الشَّبيبةِ فألقته بساحِلِ البطالةِ، فيغتنمون

(١) مقدمة ابن خلدون (ص٥٠٥).

(٢) يعني: ما دام صغيرًا تحت وصاية أهله.

في زمان الحجرِ وربقةِ الحكمِ تحصيلَ القرآن لِئَلاَّ يذهب خلوًا منه»[١].

فلابُدَّ لطالبِ العلمِ أن يغتنمَ التحصيلَ في الصِّغَر.

وقد رُوي عن الحسن البصري أَنَّه قال: طلبُ العلمِ في الصِّغَرِ كالنَّقْشِ على الحَجَرِ.

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: «تعلَّموا العلمَ، فإنَّكم إن تكونوا صغارَ قومٍ تكونوا كبارَهم غدًا، فمَن لم يحفظ فليكتب».

فوقتُ الصغرِ وقتُ النشاطِ والفراغِ وعدمِ الانشغالِ بالدنيا ومشاغلها، ولذلك يقول عمرُ رضي الله عنه: «تَفَقَّهُوا قبلَ أن تَسُودوا».

قال البخاري رحمه الله: «وبعد أن تسودوا، وقد تعلَّمَ أصحابُ النبي ﷺ في كِبَرِ سِنِّهِم»[٢].

قال الحافظ رحمه الله: «أثَرُ عمر أخرجه ابن أبي شيبة وغيره من طريقِ محمد بن سيرين عن الأحنفِ بن قيسٍ قال: قال عمر... فذكره، وإسنادهُ صحيحٌ، وإنَّما عقَّبه البخاري بقوله: وبعد أن تَسُودُوا، ليبيِّن أن لا مفهومَ له خشيةَ أن يفهم أحدٌ من ذلك أنَّ السيادةَ مانعةٌ من التَّفَقُّه، وإنَّما أرادَ عمر أنَّها قد تكون سببًا للمنعِ، لأنَّ الرئيسَ قد يمنعه الكِبرُ والاحتشامُ أن يجلسَ مجلسَ المتعلِّمين، ولهذا قال مالك عن عيبِ القضاءِ: إنَّ القاضي إذا عُزِلَ لا يرجع إلى مجلسه الذي كان يتعلَّم فيه. وقال الشافعيُّ: إذا تصدَّرَ الحدَثُ فاته علمٌ كثيرٌ.

وقد فسَّره أبو عبيد في كتابه (غريبُ الحديث) فقال: معناه: تفقَّهوا وأنتم صغارٌ، قبل أن تصيروا سادة فتمنعكم الأَنَفَةُ عن الأخذِ ممَّن هو دونكم فتبقوا جهَّالاً»[٣].

واعلم أنَّ العلمَ يرفعُ الصغيرَ حتى يصيرَ كبيرًا، وأن الجهلَ يضعُ الكبيرَ حتى يصيرَ صغيرًا.

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص٥٠٥).

(٢) فتح الباري (١/ ١٩٩).

(٣) فتح الباري (١/ ٢٠٠).

قال أبو عمر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال بعض أهل العلمِ: الكبيرُ هو العالـم في أيِّ سِنٍّ كان، وقالوا: الجاهلُ صغيرٌ وإن كان شيخًا، والعالِمُ كبيرٌ وإن كان حَدَثًا، واستشهدوا بقول الأوَّل:

تَعلَّـمْ فَلَـيسَ الْمَـرءُ يُـولدُ عَالِمًـا ... ولَـيسَ أخـو عِلـمٍ كمـن هـو جاهـلُ

وإنَّ كـبيرَ القـومِ لا عِلـمَ عـندهُ ... صـغيرٌ إذا الـتفتْ علـيه الْمَحافـلُ

واستشهدوا بأنَّ عبد الله بن عباسٍ كان يُستفتى وهو صغيرٌ، وأنَّ معاذَ بن جبلٍ وعتَّاب بن أسيد كانا يفتيان النَّاسَ وهما صغيرا السِّنِّ، وولاهما رسولُ الله ﷺ الولايات مع صِغَرِ سنِّهما، ومثلُ هذا في العلماء كثيرٌ.

وعن الزهري قال: كان مجلسُ عمر مُغْتَصًّا من القُرَّاءِ شبانًا وكُهولاً، فربَّما استشارهم ويقول: لا يمنعُ أحدَكم حداثَةُ سنِّه أن يشيرَ برأيه، فإنَّ العلمَ ليس على حداثةِ السِّنِّ وقِدَمِهِ، ولكنَّ الله يضعه حيث يشاءُ»[(١)].

ولله دَرُّ أبي الطيب إذ يقول:

لَـيْتَ الْحَـوَادِثَ باعَتْنِـي الَّذي أخَذَت ... منِّـي بِحلمـي الـذي أَعطَتْ وَتَجرِبِي

فَمَـا الْحَدَاثَـةُ مِـن حِلـمٍ بِمَانِعَـةٍ ... قَـد يُـوْجَدُ الْحِلـمُ في الشُّبَّانِ والشِّيبِ

وذكر الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ **في ترجمة البخاري** رَحِمَهُ اللَّهُ **في «هدي السَّاري» عن الفربري:** «سمعتُ محمدَ بن أبي حاتم ورَّاقَ البخاري يقول: سمعتُ البخاريَّ يقول: أُلِهمتُ حفظَ الحديث وأنا في الكُتَّابِ، قلت: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ فقال: عشرُ سنين أو أقل، ثمَّ خرجتُ من الكُتَّابِ فجعلتُ أختلفُ إلى الداخلي وغيره، فقال يومًا فيما كان يقرأ للنَّاسِ: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقلتُ: إنَّ أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم، فانتهرني، فقلتُ له: ارجع إلى الأصلِ إن كان عندك، فدخل فنظر فيه، ثمَّ رجع فقال:

(١) جامع بيان العلم (ص٢١٢).

كيف هو يا غلام؟ فقلتُ: هو الزبير وهو ابن عدي عن إبراهيم ، فأخذ القلمَ وأصلحَ كتابه، وقال لي: صدقتَ.

قال: فقلت له: إنسيان! ابن كم حين رددتَ عليه؟ فقال: ابن إحدى عشرة سنة.

قال: فلمَّا طعنتُ في ست عشرة سنة حفظتُ كتبَ ابن المبارك ووكيع، وعرفتُ كلامَ هؤلاء -يعني: أصحابَ الرأي- قال: ثُمَّ خرجتُ مع أمي وأخي إلى الحجِّ.

قال: فلما طعنتُ في ثماني عشرة صنَّفتُ كتاب قضايا الصحابةِ والتابعين، ثمَّ صنَّفتُ التاريخَ في المدينة عند قبر النبيِﷺ، وكنتُ أكتبه في الليالي المقمرةِ، وقلَّ اسمٌ في التاريخِ إلا وله عندي قصةٌ إلا أنِّي كرهتُ أن يطولَ الكتابُ»[1].

وهذا شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يزل من إبَّانِ صِغَرِهِ مستغرقَ الأوقاتِ في الجِدِّ والاجتهادِ، وختمَ القرآنَ صغيرًا، ثمَّ اشتغل بحفظ الحديث والفقهِ والعربية، حتى برعَ في ذلك مع ملازمته مجالسَ الذِّكرِ وسماعِ الأحاديثِ والآثارِ، ولقد سمعَ غيرَ كتابٍ على غير شيخٍ من ذوي الروايات الصحيحة العالية، أمَّا دواوينُ الإسلامِ الكبار؛ كمسندِ أحمد، وصحيح البخاري، ومسلم، وجامع الترمذي، وسنن أبي داود السجستاني، والنسائي، وابن ماجه، والدارقطني، فإنَّه سمعَ كُلاًّ منها مراتٍ عديدةً.

وأولُ كتابٍ حفظه في الحديث: الجمعُ بين الصحيحين للإمام الحميدي، كذا قال الشيخ الحافظ سراجُ الدين أبو حفص عمر، وسمع من مشايخ كابن عبد الدائم المقدسي وطبقته، وطلب بنفسه قراءةً وسماعًا من خَلقٍ كثير، وقرأ الكتبَ الكبارَ، ولازم السماعَ واشتغل بالعلومِ.

قال ابن عبد الهادي بن قدامة: وشيوخه الذين سمع منهم أكثرُ من مئتي شيخ، وسمع مسند الإمام أحمد مرات، وسمع الكتبَ الكبارَ والأجزاءَ، ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير، وعُني بالحديثِ، وقرأ ونسخَ وتعلَّم الخطَّ والحسابَ في الكُتَّابِ،

---

(١) هدي الساري (ص٥٠٢).

وحفظ القرآن، وأقبل على الفقه وغير ذلك، وقرأ في العربية، وأخذَ يتأمَّلُ كتابَ سيبويه حتى فهمه وبرعَ في النحو، وأقبل على التفسير إقبالاً كُلِّيًّا، حتى حاز فيه قصبَ السبقِ، وأحكمَ أصولَ الفقه وغير ذلك، هذا كلُّه وهو بعدُ ابنُ بضعَ عشرةَ سنة»(١).

واعلم أنِّي أُذَكِّرُكَ بفضلِ الطلب؛ إذ السِّنُّ غَريضٌ والأملُ عريضٌ في حين أنَّ أوانَ ذلك في الغالب الأعمِّ قد مرَّ وانتهى؛ لأنِّي أريدُ أن نتنبَّه إلى أهميةِ هذا الأمر في نفسهِ.

ولَئنِ كانت مقاديرنا -والحمدُ لله على ما أنعمَ به- قد جَرَت بضدِّه، فلنجتهد بفضلِ من الله وتوفيقٍ منه أن يكون ذلك في أبنائنا، نسألُ الله أن تجري مقاديرهم به؛ إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

«فمَن رُزِقَ ولدًا، فليجتهد معه، والتوفيقُ من وراء ذلك، فينبغي له أن يعوِّدَه النظافةَ والطهارَةَ من الصِّغَرِ، ويُثَقِّفَهُ بالآدابِ، فإذا بلغَ خمسَ سنين أخذه بحفظِ العلمِ؛ فإنَّ الحفظ في الصِّغَرِ نقشٌ في حَجَرٍ، ومتى بلغَ الصبيُّ ولم تكن له هِمَّةٌ تحثُّه على اكتسابِ العلم بعدُ فلا فلاحَ له»(٢).

أخرجَ الخطيب بسنده عن موسى بن عليٍّ، عن أبيه أنَّ لقمانَ قال لابنه: يا بني، ابتغِ العلمَ صغيرًا؛ فإنَّ ابتغاءَ العلم يشقُّ على الكبير، يا بني إنَّ الموعظةَ تشقُّ على السَّفِيهِ، كما يشقُّ الوَعْرُ الصَّعُودُ(٣) على الشيخِ الكبيرِ.

وعن هشام بن عروة قال: قال أبي: إنَّا كنَّا أصاغرَ قومٍ ثمَّ نحن اليوم كبارٌ، وإنَّكم اليوم أصاغرُ وستكونون كبارًا، فتعلَّموا العلمَ تسودوا به قومكم ويحتاجوا إليكم.

وعن أبي بكر الحافظ رَحِمَهُ اللهُ **قال:** التَّفَقُّهُ في زمنِ الشَّبيبةِ وإقبالِ العمرِ، والتمكُّنُ منه بقلَّةِ الأشغالِ وكمالِ الذهنِ وراحةِ القريحةِ، يرسخ بذلك في القلبِ، ويثبتُ، ويتمكَّنُ ويستحكم؛ فيحصل الانتفاعُ به والبركةُ، إذا صحبه من الله حُسنُ التوفيقِ.

(١) غاية الأماني (٢/ ١٥٥).

(٢) الحث على حفظ العلم (ص٢٩).

(٣) **الوَعرُ**: المكانُ الحَزَنُ ذو الوُعُورَةِ، ضِدُّ السَّهلِ، **الصَّعُودُ**: العقبةُ الكئودُ، وجمعها: الأصعِدَةُ.

وأذا أهملَ إلى حالةِ الكِبَرِ المغيِّرةِ للأخلاقِ، الناقصةِ الآلاتِ كان كما قال الشاعر:

إذَا أنـــتَ أعـــيَاكَ الـــتَّفَقُّهُ ناشِـــئًا فَمَطْلَـــبُهُ شَـــيْخًا عَلَـــيكَ شَـــدِيدُ[١]

فالأخذُ بأسبابِ العلمِ في حال الصِّغَر مَظِنَّةٌ بلوغِ الشَّأو وقضاءِ الوَطَرِ، وقد سافر الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مدينةِ النبي ﷺ لأخذ العلمِ عن مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وله من العمرِ أربع عشرة سنة، وليس من نبات بِعَارِضَيهِ.

وحكى هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ **رحلته في طلب العلمِ فقال:** «فارقتُ مكَّةَ وأنا ابنُ أربع عشرة سنة لا نباتَ بعارضَيَّ من الأبطحِ إلى ذي طُوى، وعليَّ بُردان يمانيان، فرأيتُ ركبًا مُنيخةً سلَّمتُ عليهم فردُّوا عليَّ السلامَ، فوثبَ إليَّ شيخٌ كان فيهم فقال: سألتُ بمن ألقيتَ علينا سلامه إلا ما حضرتَ طعامنا، وما كنتُ علمتُ أنَّهم أحضروا طعامًا، فأجبتُ مسرعًا غير مُحْتَشِمٍ، فرأيتُ القومَ بَدوًا يأخذون الطعامَ بالخمسِ ويدفعون بالرَّاحَةِ، فأخذتُ كأخذِهم كيلا يستشنعَ عليهم مأكلي.

قال: والشيخ ينظر إليَّ ساعةً بعد ساعةٍ، ثُمَّ أخذتُ السِّقَاءَ وشربتُ رِيًّا، وحمدتُ الله تعالى وأثنيتُ عليه.

قال: فأقبل عليَّ الشيخُ وقال: مكيٌّ أنتَ؟

قلتُ: مكي.

قال: قرشيٌّ أنتَ؟

قلت: قرشي. ثُمَّ أقبلتُ عليه وقلتُ له: يا عمُّ، بِمَ استدللتَ عليَّ؟

فقال: أمَا في الحضَرِ طعامٌ [٢]؟ مَن أحبَّ أن يأكلَ طعامَ النَّاسِ أحبَّ أن يأكلوا طعامه، وذلك في قريش خصوصًا.

قال الشافعيُّ: فقلتُ: من أين؟

---

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ٩٠).

(٢) الاستفهامُ تقريري، يقصد الرجل أن بالحضر طعامًا، وأن الشافعيَّ أكل معهم لكرمه، لا لحاجته.

قال: من يثرب، مدينةِ رسولِ اللهﷺ.

فقلتُ: مَن العالِـمُ بها والمتكلِّمُ في نصِّ كتابِ الله، والمفتي بأخبارِ رسول اللهﷺ.

فقال: سَيِّدُ أَصْبحَ، مالكُ بن أنس.

فقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فقلتُ: واشوقاه إلى مالك!

فقال لي مجيبًا: عدل الله شوقك، ألا ترى إلى البعيرِ الأورقِ؟

فقلتُ: أجل.

قال: هو أحسنُ جِمَالِنَا قيادًا، وأسهلها مشيًا، ونحن ثمانيةُ نفرٍ، ذلك ممَّا حسَّنَ الصحبةَ حتى تصل إلى مالك.

قال الشافعيُّ: فقلتُ: متى ظعنُكُم[1]؟

فقالوا: في وقتنا هذا.

فما كان غير بعيدٍ حتى قطروا بعضَها إلى بعضٍ، وأركبوني البعيرَ الذي كانوا وعدوني بركوبه.

قال الشافعيُّ -رحمة الله عليه-: فعلوتُ على ظهره، وأخذ القومُ في السير، وأخذتُ أنا في الدَّرسِ، فختمتُ من مكة إلى المدينةِ ستَّ عشرةَ ختمة: ختمة بالليلِ، وختمة بالنَّهَارِ»[2].

ثُمَّ قصَّ الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصةَ لقائهِ بمالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأخذهِ العلمَ عنه، كلُّ ذلك وله من العمر أربع عشرة سنة، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

❊ ❊ ❊

---

(١) **الظعنُ**: هو الرحيلُ.

(٢) رحلة الإمام الشافعي بقلمه (ص٦).

٣- على أنَّه ينبغي للمتعلِّم أن يطلبَ العلمَ مهما امتدَّ به العمرُ:

ولا ييأسَ من رَوحِ الله أن مرَّ عليه من العمرِ ما مرَّ ولم يغتنم منه في التحصيل شيئًا، فَرُبَّ متخلِّفٍ عن الرَّكبِ سَمَت به همَّتُهُ فكان الحادي وكان الطليعةَ، وما يدريك لعلَّ الله ﷻ ادَّخَركَ ليصنعَ منك شيئًا، فلا تقنع بالدُّونِ وآفاقُ السماءِ أمامك مفتوحةٌ مُرَحِّبَةٌ.

إذَا غَامَـــرتَ في شَـــرَفٍ مَـــرُومِ فَـلا تَقْـنَـــع بـمَـــا دُونَ النُّـجُـــومِ
فَطَعـــمُ الْمَـــوتِ فِـــي أَمـــرٍ حَقِـــيرٍ كَطَعـــمِ الْمَـــوتِ فِـــي أمـــرٍ عظِـــيمِ

فإن آنستَ من نفسِكَ للعلمِ شوقًا، ولتحصيله استعدادًا، فلا تُسَوِّف، وتدارك ما مضى؛ فإنَّ العمرَ يمضي.

والغايةُ أمامك كالشمسِ في رائعةِ الضحى، فلا تجعلها دَبرَ أذنيك، بل فاجعلها نصبَ عينيك، فإن لم تفعل دخلتَ تحت قول أبي الطيب:

ولَـــم أَرَ فِـــي عُـــيُوبِ الـــنَّاسِ عَيـــبًا كَعجـــزِ القَـــادِرينَ عَـلَـــىٰ التَّـمَـــامِ

فعلى المتعلِّمِ أن يطلبَ المزيدَ من العلمِ مهما بلغَ من العمرِ، ومهما كان له من العلمِ والرئاسةِ والجاهِ، وعليه ألا يرضى بما لديه من العلمِ مهما كان كثيرًا، فالعلمُ من المهدِ إلى اللَّحدِ.

وقد مرَّ قول أبي عبد الله البخاريِّ -رحمه الله تعالى-: وقد تعلَّمَ أصحابُ النبي ﷺ في كِبَرِ سنِّهم.

وقد قيل لابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إلى متى تطلبُ العلمَ؟ قال: حتى المماتِ -إن شاء الله- وقيل له مرةً أخرى مثل ذلك، فقال: لعلَّ الكلمةَ التي تنفعني لم أكتبها بعد.

وقال المنصورُ بن المهدي للمأمون: أيحسنُ بالشيخِ أن يتعلَّمَ؟ فقال: إن كان الجهلُ يعيبه، فالتعلُّم يحسنُ به.

وقال الزرنوجيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دخل الحسنُ بن زيادٍ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفقه وهو ابن ثمانين

(١) هو الحسن بن زياد اللؤلؤي، الكوفي، صاحب الإمام أبي حنيفة، كان محبًّا للسنة وأتباعها، وكان يختلف إلى زفر وأبي يوسف في الفقه، توفي سنة ٢٠٤هـ.

سنةً، ولم يبت على الفراشِ أربعين سنةً.

ولـم تمنع السيادةُ موسى عليه السلام ولا منعه سِنُّهُ أن يخرج للقاء العبدِ الصالحِ لما أخبره الله أنَّ عنده علمًا ليس يعلمه.

وفي الصحيح: باب ما ذُكِرَ في ذهَابِ موسى ﷺ في البحرِ إلى الخَضِرِ، وقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف:٦٦].

عن ابن عبَّاسٍ أَنَّهُ تَمَارَى هُوَ والحُرُّ بنُ قَيس بن حِصنٍ الفَزَاري في صاحبِ مُوسى، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: هُوَ خَضِرٌ، فَمَرَّ بِهِمَا أُبَيُّ بنُ كَعبٍ فدَعَاهُ ابنُ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: إنِّي تَمَارَيتُ أنَا وصَاحِبي هَذَا في صَاحبِ مُوسَى الذي سَأَلَ مُوسَى السَّبيلَ إلَى لُقِيِّهِ، هَل سَمِعتَ النبيَّ ﷺ يذكُرُ شَأْنَهُ؟ قالَ: نَعم، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**بَينما مُوسى في مَلإٍ من بني إسرائيل إذ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: هَل تَعْلَمُ أحَدًا أعلَمَ مِنكَ؟ قَالَ مُوسى: لا، فَأَوحَى الله إلى مُوسَى: بَلى، عَبدُنَا خَضِرٌ، فسَأَلَ مُوسَى السَّبيلَ إليهِ، فجَعَلَ الله له الحُوتَ آيَةً، وقيلَ له: إذَا فَقدتَ الحوتَ فارجع فإنَّكَ سَتَلقَاهُ، وكَانَ يَتَّبعُ أثَرَ الحُوت في البحر، فقَالَ لموسى فَتَاهُ: أرَأيتَ إذ أوينَا إلى الصَّخرَةِ فإنِّي نَسيتُ الحُوتَ، ومَا أنسَانِيهُ إلا الشيطَانُ أن أذكُرَهُ، قَالَ: ذَلِكَ ما كُنَّا نَبغي، فارتدَّا علَى آثَارِهِمَا قَصَصًا، فوجَدَا خَضِرًا، فَكَانَ من شَأنِهِمَا الذي قَصَّ الله عَزَّ وَجَلَّ في كِتَابِهِ**».

قال الحافظ رحمه الله: «قوله: (باب ما ذُكِرَ في ذهابِ مُوسَى في البَحرِ إلَى الخَضِر) هذا الباب معقود للترغيب في احتمال المشقَّةِ في طلبِ العلمِ، لأنَّ ما يُغتبط به تُحتَمَلُ المشقَّةُ فيه، ولأنَّ موسى عليه السلام لم يمنعه بلوغُهُ من السِّيادَةِ المحلَّ الأعلى من طلبِ العلمِ وركوبِ البرِّ والبحرِ لأجله، وظاهرُ التبويب أنَّ موسَى ركبَ البحرَ لما تَوجَّه في طلب الخضر وفيه نظرٌ؛ لأنَّ الذي ثبت عند المصنِّفِ وغيره أنَّه خرجَ في البرِّ، وإنَّما ركبَ البحرَ في السفينة هو والخضرِ بعد أن التقيا.

فيُحمل قوله: (إلى الخَضِر) على أنَّ فيه حذفًا، أي: إلى مقصد الخضِر، لأنَّ موسى لم يركب البحرَ لحاجةِ نفسهِ، وإنَّما ركبه تبعًا للخضرِ، ويحتمل أن يكون التقديرُ: ذهاب

موسى في ساحل البحرِ فيكون فيه حذفٌ، ويمكن أن يقالَ: مقصودُ الذهاب إنَّما حصلَ بتمامِ القصةِ، ومن تمامِها أنَّه ركبَ معه البحرَ، فأطلق على جميعها ذهابًا مجازًا، إمَّا من إطلاقِ الكلِّ على البعض أو من تسمية السبب باسم ما تسبَّب عنه.

وفي الحديث جوازُ التجادلِ في العلمِ إذا كان بغير تعنُّتٍ، والرجوعُ إلى أهل العلمِ عند التنازعِ، والعملُ بخبرِ الواحدِ الصدوقِ، وركوبُ البحر في طلبِ العلم، بل في طلب الاستكثار منه، ومشروعيةُ حملِ الزاد في السفرِ، ولزومُ التواضعِ في كلِّ حال، ولهذا حرصَ موسى على الالتقاء بالخضرِ -عليهما السلام- وطلب التَّعَلُّمِ منه تعليمًا لقومِهِ أن يتأدَّبوا بأدَبِهِ، وتنبيهًا لمن زكَّى نفسَهُ أن يسلُكَ مَسلَكَ التَّوَاضُعِ»[1].

ويجمعُ ما أريد أن أقولَ في هذا الأمرِ: قولُ البخاريِّ -رحمه الله تعالى-: وقَد تَعَلَّمَ أصحابُ النبيِّ ﷺ في كِبَرِ سِنِّهِم.

وهذا القولُ الجامعُ من أبي عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ دالٌّ على تمامِ فقهه وكمالِ معرفتِهِ، فما ينبغي لأحدٍ أن يتركَ العلمَ والفقهَ لِكِبَرِ السنِّ؛ إذ ما منعَ ذلك أصحابَ النبي ﷺ أن يكونوا في العلمِ بالمثابةِ التي يعرفها كلُّ مسلمٍ.

وأبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من أكابرِ علماءِ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم ما أسلموا إلا وهم كبارٌ، ولكنهم أقبلوا على رسول الله ﷺ ينهلون من بحارِ علمِهِ، حتى أوفوا على الغاية وبلغوا المنتهى -رضوانُ الله عليهم أجمعين-.

«أخرج أبو خيثَمةَ رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده عن مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ قالَ: جَالَستُ أصحابَ رَسُولِ الله ﷺ فَكانُوا كالإخَاذِ يَروي الرَّاكِبَ، والإخَاذِ يَروي الرَّاكِبينِ، والإخَاذِ يَروِي العَشَرَةَ، والإخَاذِ لَو نَزَلَ بِهِ أهلُ الأرضِ لأصدَرَهُم، وإنَّ عبدَ الله مِن تلكَ الإخَاذِ».

قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: الإخَاذُ بوزن كِتَاب: مُجْتَمَعُ الْـمَاءِ، والسند صحيحٌ، وعبد الله هو ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٠٢).

وأخرج أبو خيثمةَ رَحِمَهُ اللهُ بسنده عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لَو أنَّ عِلمَ عُمَر ابن الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وُضِعَ في كفَّةِ الميزَانِ، ووُضِعَ عِلمُ أهلِ الأرضِ في كِفَّةٍ، لَرَجَحَ عِلمُ عُمَرَ بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال الألباني: إسنادهُ صحيحٌ، وكذا الذي بعده، وهو:

قال عبدُ الله: إنِّي لأحسَبُ عُمَرَ قَد ذَهَبَ بتِسعَةِ أعشَارِ العِلمِ[١].

فَلتَدَعنِي يا أخي -بإذنِك وسماحِك- أُكَرِّر عليك قولَ البخاري رَحِمَهُ اللهُ، فهو فَصلُ الخطابِ في المسألةِ، وهو منتهى القَصْدِ فيها، يقول رَحِمَهُ اللهُ: وقَد تَعَلَّمَ أصحابُ النبيِّ ﷺ في كِبَرِ سِنِّهِم.

* * *

(١) كتاب العلم، للحافظ أبي خيثمة زهير بن حرب النسائي (ص١١٧).

٤ - وعلى طالبِ العلمِ أن يتحلَّى بالحلمِ والصبرِ:

فعن عطاء بن يَسَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ **قال**: ما أَوَى شيءٌ إلى شيءٍ، أزين من حلمٍ إلى علمٍ.

وقال إبراهيمُ بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: ما من شيء أشدُّ على الشيطان من عالمٍ حليمٍ، إذا تكلَّمَ تكلَّم بعلمٍ، وإذا سكتَ سكتَ بحلمٍ، يقول الشيطانُ: انظروا إليه، كلامُه أشدُّ عليَّ من سكوتِهِ.

وأخرجَ أبو عمر بن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **بسنده عن ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قالَ**: مَكَثْتُ سَنَةً وأَنَا أَشُكُّ فِي ثِنتَينِ، وأَنَا أُرِيدُ أن أَسْأَلَ عُمَرَ بن الخطَّابِ عَنِ المُتَظَاهِرتَينِ[١] عَلَى رسولِ اللهِ ﷺ، ومَا أجدُ لَهُ مَوضِعًا أَسأَلُهُ فيهِ، حتَّى خَرَجَ حَاجًّا وصَحِبْتُهُ، حَتَّى إذا كُنَّا بِمَرِّ الظَّهْرَانِ ذَهَبَ لحاجَتِهِ، وقَالَ: أَدرِكنِي بإِدَاوَةٍ مِن مَاءٍ، فَلَمَّا قَضَى حَاجَتَهُ وَرَجَعَ، أَتيتُهُ بالإِدَاوَاةِ أَصُبُّهَا عليهِ فَرأيتُ مَوضِعًا [٢]، فَقُلتُ: يَا أميرَ المؤمنين، مَن المرأتَانِ المُتَظَاهِرتَانِ عَلَى رسُولِ اللهِ ﷺ؟ فمَا قَضَيتُ كلامِي حَتَّى قالَ: عَائِشَةُ وحَفصَةُ.

قال أبو عمر: لم يمنع ابن عباس من سؤال عمر عن ذلك إلا هيبتُهُ، وذلك مذكورٌ في حديث ابن شهاب، وهو:

عن ابن عباس قال: مَكَثْتُ سَنَتَينِ أُريدُ أَن أَسْأَلَ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ عن حَديثٍ مَا مَنَعَنِي مِنهُ إلا هَيْبَتُهُ، حتَّى تَخَلَّفَ فِي حَجٍّ أو عُمْرَةٍ فِي الأَرَاكِ الَّذِي بِبَطنِ مَرِّ الظَهْرَانِ لِحَاجَتِهِ، فَلَمَّا جَاءَ خَلَوتُ بِهِ، قُلْتُ: يَا أَميرَ المؤمِنينَ أُريدُ أَن أَسَأَلَكَ عَن حديثٍ مُنْذُ سَنَتَينِ مَا يَمْنَعُنِي إلا هَيبَةٌ لَكَ، قالَ: فَلا تَفْعَل[٣]، إذَا أَرَدتَ أَن تَسْأَلَ فَسَل، فإن كَانَ مِنهُ عِندي عِلمٌ أَخبَرتُكَ وإلا قُلتُ: لا أعلَمُ، فَسأَلتَ مَن يَعْلَمُ.

---

(١) يريد قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

(٢) أي: موضعًا للسؤال.

(٣) أي: فلا تمتنع عن السؤال.

قُلتُ: مَنِ المَرْأتَانِ اللَّتَانِ ذَكَرَهُمَا أَنَّهُمَا تَظَاهَرَتَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

قَالَ: عَائِشَةُ وَحَفصَةُ.

ثُمَّ قَالَ: كَانَ لي أَخٌ مِنَ الأنصَارِ، وَكُنَّا نَتعَاقَبُ النُّزُولَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنزِلُ يَومًا وَيَنزِلُ يومًا، فَمَا أَتَى مِن حَدِيثٍ أَو خَبَرٍ أَتَاني بِهِ، وأَنَا مِثلُ ذَلِكَ، ونَزَلَ ذَاتَ يومٍ وتَخَلَّفْتُ، فَجَاءَني... وذكر الحديث بطوله وتمامه.

قال أبو عمر: الذى آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عمر بن الخطاب من الأنصار: عتبانُ بنُ مَالكٍ[1].

فانظر إلى ابن عباس ﷺ كيف صبرُهُ! وكيف أدبُهُ! وكيف تَحيُّنُهُ للفرصِ حتى يتعلَّم!

مسألةٌ تدور في ذهنه، لا يريد أن يسألَ عنها أحدًا إلا عمرَ، وتمنعه الهيبةُ، فيصبر، ثُمَّ يصبر مُتَحيِّنًا لفرصةٍ تسنح، فإذا سنحت انقضَّ عليها كالعُقَاب الكاسِرِ، لا تريم عنه، ولا تُفلت منه، وإذا أبكارُ المعاني قد فُضَّت أغلاقُها، وسقط رتاجُها، وانحلَّت عُقَدُهَا، وإذا هي واضحةٌ جَلِيَّةٌ أمامه، في كلمةٍ واحدةٍ من عمر ﷺ.

فمَن كان مُتَأسيًا في الصبرِ على الطلبِ، فهذا عَلَمٌ من أعلامه شامخٌ، وقمَّةٌ من قممهِ سامقةٌ.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «مَن لم يصبر على ذُلِّ العلمِ، بقي عمرَهُ في عَمايةِ الجهلِ، ومَن صبرَ عليه -أي: على العلمِ- آل أمره إلى عزِّ الآخرةِ والدنيا، ومنه الأثرُ المشهورُ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: ذَلَلتُ طَالِبًا فعززتُ مطلوبًا»[2].

وكم كان عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما مُشرِقَ البصيرةِ، نَفَّاذَ الفكرةِ، واسعَ الحلمِ حين أقبلَ على أصحابِ رسولِ الله ﷺ يسألُهم ويتعلَّمُ منهم، فلمَّا ذهبَ أكثرُهُم إلى لقاءِ ربِّهم

(١) جامع بيان العلم (ص١٤٨).

(٢) المجموع (١/ ٣٧).

افتقرَ الناسُ إليه، وأقبلَ طلابُ العلمِ عليه، رضي الله تعالى عنه.

يحكي حَبرُ الأمَّةِ وتُرجمانُ القرآنِ كيف وصلَ إلى هذه المنزلةِ العَلِيَّةِ من العلمِ بعد توفيقِ الله ﷻ ثمَّ بركةِ دعاءِ النبيِّ ﷺ حين دعا له أن يعلِّمه الله الكتابَ، كما أخرج الشيخان -رحمهما الله تعالى-: عن عِكرِمَةَ عن ابن عبَّاسٍ قالَ: «ضَمَّني رسُولُ الله ﷺ وقالَ: **اللهمَّ عَلِّمْهُ الكِتَابَ**».

قال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: «**عَلِّمْهُ الكِتَابَ**»، بيَّن المصنِّفُ في كتابِ الطهارةِ من طريق عبيد الله بن أبي يزيد، عن ابن عباسٍ سببَ هذا الدعاء، ولفظه: «دَخَلَ النبيُّ ﷺ الخَلاءَ فَوضَعتُ لَهُ وَضوءًا». زاد مسلم: «فَلَمَّا خَرجَ قالَ: **مَن وضَعَ هَذَا؟** فَأُخْبِر».

والمرادُ بالكتابِ: القرآنُ؛ لأنَّ العُرفَ الشرعيَّ عليه، والمرادُ بالتعليمِ ما هو أعمُّ من حفظِهِ والتفهُّمِ فيه»(١).

وفي رواية للبخاريِّ رَحِمَهُ اللهُ عن عِكرمَةَ عن ابن عبَّاسٍ قالَ: ضَمَّني النَّبيُّ ﷺ إلَى صَدرِهِ، وقَالَ: اللهمَّ عَلِّمْهُ الحِكمَةَ، قال البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ: والحِكمَةُ: الإصابَةُ في غَيرِ النُّبُوَّةِ.

قالَ الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: «واختُلِفَ في المرادِ بالحكمةِ هنا، فقيلَ: الإصابةُ في القولِ، وقيلَ: الفهمُ عن الله، وقيلَ: ما يشهدُ العقلُ بصحَّتِهِ، وقيلَ: نورٌ يفرِّقُ به بين الإلهامِ والوسواسِ، وقيلَ: سرعةُ الجوابِ بالصوابِ، وقيلَ غير ذلك، وكان ابن عباسٍ رضي الله عنهما أعلَمَ الصَّحَابَةِ بتفسيرِ القرآنِ»(٢).

يحكي حَبْرُ الأمَّةِ، وتُرجمانُ القرآنِ كيف وصل إلى هذه المنزلةِ العَلِيَّةِ من العلمِ، فيقول:

«لَـمَّا قُبِضَ رَسُولُ الله ﷺ، قُلتُ لِرَجُل مِنَ الأنصارِ: هَلُمَّ فَلنسَأل أصحابَ رسُولِ الله ﷺ،

(١) فتح الباري (١/ ٢٠٤).

(٢) فتح الباري (٧/ ١٢٦).

فإِنَّهُمُ اليومَ كَثيرٌ، فقَالَ: يَا عَجبًا لَكَ يَا ابن عبَّاسٍ، أَتَرى النَّاسَ يَفتَقِرُونَ إليكَ وفِي النَّاسِ مِن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ مَن فيهم؟!.

قَالَ ابنُ عبَّاسٍ: فترَكْتُ ذَلِكَ، وأَقْبَلتُ أَنَا أَسَأَلُ أصحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِنَّهُ كَان لَيَبْلغنِي الحَديثُ عَنِ الرجُلِ، فآتِي بَابَهُ وَهُوَ قَائِلٌ[١]، فأَتَوسَّدَ رِدَائي عَلَى بَابِهِ تَسفِي الرِّيحُ عَلَيَّ مِنَ التُّرابِ، فَيَخرجُ فَيَرانِي، فَيَقُول: يَا ابنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا جَاءَ بِكَ؟ هَلاَّ أَرسلْتَ إِليَّ فَآتيكَ؟

فَأَقُولُ: لا، أَنَا أَحَقُّ أن آتيكَ، قَالَ: فَأَسْأَلُهُ عَنِ الحديثِ، قَالَ ابنُ عبَّاسٍ: فعَاشَ الرَّجُلُ الأنصَاريُّ حَتَّى رآنِي وقَدِ اجتمَعَ حَولِي النَّاسُ يَسألُونَنِي، فَقَالَ: هذَا الفَتَى كَانَ أَعْقَل مِنِّي».

قلتُ: وقديمًا قيلَ: مَن طَلَبَ شيئًا وَجدَّ وَجدَ، وَمَن قَرَعَ البابَ وَلَجَّ وَلَجَ، وقيل: بِقَدرِ مَا تَتَعَنَّى تَنَالُ مَا تَتَمَنَّى.

قيلَ للشَّعبيِّ رَحِمَهُ اللهُ: من أين لك هذا العلم كله؟

قال: ينبغي الاعتمادُ والسيرُ في البلادِ، وصبرٌ كصبرِ الجِمَالِ، وبكورٌ كَبُكُورِ الغرابِ.

وأبو هريرةَ رضي الله عنه من أصحابِ النبيِ ﷺ الذين يُضربُ بهم المثلُ في الصبرِ على التحصيل والجدِّ فيه حتى بلوغِ الغايةِ، مع قِصَرِ مُدَّةِ صحبتِهِ للنبيِ ﷺ، إذ لم تَتَعَدَّ مُدَّةُ صحبته ثلاثةَ أعوامٍ، أصبحَ فيها أكثرَ أصحاب النبيِ ﷺ روايةً عنه.

وكان رضي الله عنه أحفظَ مَن روى الحديثَ في دهره.

يقول السيوطيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وأكثرهم حديثًا -أي: أصحاب النبيِ ﷺ- أبو هريرة رضي الله عنه، روى خمسة آلافٍ وثلاث مئة وأربعةً وسبعين حديثًا، اتَّفقَ الشيخان منها على ثلاث مئة وخمسةٍ وعشرين، وانفرد البخاريُّ بثلاثةٍ وتسعين، ومسلمٌ بمئةٍ وتسعةٍ وثمانين، وروى عنه أكثرُ من ثماني مئة رجلٍ، وهو أحفظ الصحابةِ.

---

(١) قال يقيل: نام نومة نصف النهار، وهي القائلة والقيلولة.

ثُمَّ عبدُ الله بن عمر روى ألفي حديثٍ وستَّ مئة وثلاثين حديثًا، وابنُ عباس روى ألفًا وستَّ مئة وستين حديثًا، وجابرُ بن عبد الله روى ألفًا وخمس مئة وأربعين حديثًا، وأنسُ بن مالك روى ألفين ومئتين وستًّا وثمانين حديثًا، وعائشةُ أمُّ المؤمنين روت ألفين ومئتين وعشرةً. وليس في الصحابة مَن يزيد حديثهُ على ألفٍ غير هؤلاء إلا أبا سعيد الخدري، سعد بن مالك، فإنَّه روى ألفًا ومئة وسبعين حديثًا»[1].

وهؤلاء الأصحاب ﭬ هم الذين عناهم مَن عناهم في قوله:

سَبْعٌ مِنَ الصَّحْبِ فَوقَ الألفِ قَد نَقَلُوا ... مِـنَ الْحَـديثِ عَنِ الْمُختَارِ خَيرِ مُضَرْ

أَبُــو هُرَيــرَةَ، سَــعْدٌ، جَابِــرٌ، أَنَــسٌ ... صِـدِّيقَةٌ، وابـنُ عـبَّاسٍ، كذَا ابنُ عُمَرْ

كان أبو هريرة ﭬ شديدَ الحرصِ على العلمِ، ملازمًا للجدِّ في الطلبِ، يبيِّنُ هذا ما أخرجه البخاريُّ عنه قالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ الله! مَن أسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعتِكَ يَومَ القيَامَة؟ قَالَ رسولُ الله ﷺ: «**لَقَد ظَنَنتُ يَا أَبَا هُرَيرَةَ أَلا يَسْأَلَني عَن هذَا الحديثِ أحدٌ أَوَّلَ مِنكَ، لِـمَا رأيتُ مِن حِرصِكَ علَى الحديثِ، أسعَدُ النَّاسِ بشَفَاعَتِي يومَ القيَامَةِ مَن قَالَ: لا إلَه إلا اللهُ خالِصًا من قَلبِهِ، أَو نَفسِهِ**».

وقال ﭬ يصفُ حاله من الصبرِ والحلمِ، والجدِّ والاجتهاد: «كُنتُ أَلزَمُ النَّبيَّ ﷺ لشبَعِ بَطِني، حِينَ لا آكُلُ الخَمِيرَ، ولا أَلْبَسُ الحَبِيرَ، ولا يَخدُمُني فُلانٌ ولا فُلانَةٌ، وأُلصِقُ بَطنِي بالحَصبَاءِ، وأَستَقرِئُ الرَّجُلَ الآيَةَ وهيَ مَعي كَي يَنقَلب بِي فَيُطْعِمَني».

قال الحافظ ﭬ: «(الحبيرُ) قال عياض: هو الثوبُ المحبَّرُ، وهو المزَيَّنُ الملَوَّنُ مأخوذٌ من التحبيرِ وهو التحسين، وقيل: الحبيرُ: ثوب وشي مُخَطَّطٌ، وقيل: هو الجديدُ».

وقالَ أبو هُرَيرَةَ ﭬ: «إنَّكُم تَقُولُونَ: إنَّ أبَا هُرَيرةَ يُكثرُ الحديثَ عن رَسُولِ الله ﷺ، وتَقُولُونَ: مَا بَالُ المُهَاجرينَ والأنصَارِ لا يُحدِّثُونَ عَن رسُولِ الله ﷺ بمثلِ حدَيثِ أَبِي هُرَيرَةَ؟ وإنَّ إخوَتِي مِن المُهَاجرينَ كَانَ يَشغَلُهُم الصَّفقُ بالأسواقِ، وكُنتُ أَلزمُ رَسُولَ الله ﷺ

---

(١) تدريب الراوي (٢/ ٢١٦).

عَلَى مِلْءِ بَطنِي، فأشهدُ إذا غَابُوا، وأحفظُ إذا نسَوُا، وكَانَ يَشغَلُ إخوَتي منَ الأنصَارِ عَمَلُ أموَالِهِم، وكُنتُ امرأً مسكينًا مِن مسَاكين الصُّفَّة أعي حينَ ينسونَ، وقَد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في حديث يُحَدِّثُهُ: **إنهَّ لَن يَبسُطَ أحدٌ ثَوبَهُ حتَّى أقضي مقَالَتي هذهِ ثُمَّ يَجمعُ إليه ثَوبَهُ إلا وَعَى مَا أَقُولُ**. فبَسَطتُ نَمِرَةً عَلَيَّ، حتَّى إذَا قَضَى رَسُولُ الله ﷺ مقَالَتَهُ جَمَعتُها إلى صَدرِي، فَما نَسِيتُ مِن مَقَالَةِ رسُولِ اللهِ ﷺ تِلكَ من شَيء» متفق عليه.

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: (الصَّفقُ) بإسكان الفاء، هو ضربُ اليد على اليد، وجرت به عادتهم عند عَقدِ البيعِ.

قوله: (في أموَالِهِم)؛ أي: القيام على مصالحِ زرعهم، ولمسلمٍ: «كَانَ يشغَلُهُم عَمَلُ أَرضيهم».

ووقع في رواية شُعَيب -هي التي مَرَّت-: «فما نَسيتُ مِن مقَالَتِهِ تِلكَ مِن شيءٍ»، وهذا يقتضي عدمَ النسيانِ بتلك المقالةِ فقط.

وفي رواية يونس عند مسلم: «فَمَا نَسِيتُ بَعدَ ذَلِكَ اليَومِ شَيئًا حَدَّثني بِهِ».

وفي رواية مالكٍ عند البخاري: «فَمَا نَسيتُ شَيئًا مِنهُ» وتنكير (شيئًا) بعد النفي ظاهرُ العمومِ في عدمِ النسيانِ منه لكلِّ شيءٍ من الحديثِ وغيره.

وسياقُ الكلامِ يقتضي ترجيحَ روايةِ يونسَ ومَن وافقه، لأنَّ أبا هريرة نبَّه به على كثرةِ محفوظه من الحديث، فلا يصحُّ حمله على تلك المقالةِ وحدها»[1].

وقال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: «الصَّفْقُ بفتح المهملَةِ، المرادُ به: التبايعُ، وسُمِّيت البيعةُ صفقةً لأنَّهم اعتادوا عند لزومِ البيعِ ضربَ كفِّ أحدهما بكفِّ الآخرِ إشارةً إلى أنَّ الأملاكَ تضافُ إلى الأيدي، فكأنَّ يدَ كلِّ واحدٍ استقرَّت على ما صارَ له.

وقوله: «علَى مِلءِ بَطْني» أي: مقتنعًا بالقوتِ، أي: فلم تكن له غَيبَةٌ عنه ﷺ.

وقوله: «نَمِرَة» بفتحِ النُّونِ، وكَسر الميمِ، أي: كساء مُلَوَّن، وقال ثعلبٌ: هي ثوبٌ

(١) فتح الباري (١/ ٢٥٩).

مُخَطَّطٌ، وقال القزازُ: دَرَّاعَةٌ تُلبس، فيها سوادٌ وبياض»[١].

وفي رواية لمسلمٍ، عن أبي هريرة ﵁، قال: «كُنتُ رجُلاً مسكينًا أخدُمُ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى ملءِ بَطنِي، وكَانَ المهَاجِرُونَ يشغلُهُمُ الصَّفْقُ بالأسوَاقِ، وكَانتِ الأنصَارُ يشغَلُهُمُ القيَامُ عَلَى أموَالِهِم».

قال النووي ﵀: «قوله: «كُنتُ أخدُمُ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى ملءِ بَطنِي» أي: أُلازمه، وأقنع بقُوتِي، ولا أجمع مالاً لذخيرةٍ ولا غيرها، ولا أزيد على قُوتِي من حيث حصلَ القوتُ من الوجوهِ المباحةِ، وليس هو من الخدمةِ بالأجرة.

وقوله: «يَشغَلُهُمُ الصَّفقُ بالأسوَاقِ» هو بفتح الياء من (يشغَلُهُم) وحُكي ضَمُّها وهو غريبٌ، و(الصَّفْقُ) هو كنايةٌ عن التبايعِ، وكانوا يصفُقُون بالأيدي من المتبايعين بعضها على بعضٍ، والسوقُ مؤنَّثةٌ ويُذَكَّرُ، سُمِّيت به لقيامِ النَّاسِ فيها على سُوقِهِم»[٢].

قلتُ: فالصبرُ على مشَقَّةِ التحصيلِ أهمُّ ما يلزمُ طالبَ العلمِ في طَلَبِهِ، وقد رأيتَ -متَّعَك الله بالخير وحبَاكَ بالبرِّ- كيف بلغَ أبو هريرةَ ﵁ في الرواية في مُدَّةٍ يسيرةٍ مبلغًا بعيدًا، ولكنَّه ضحَّى في سبيلِ ذلك براحةِ الجسمِ، وشهوةِ المطْعَمِ ولذيذِ الغُمضِ، وتحمَّلَ الجوعَ، وصبرَ على الضنى، وانقطعَ لرسولِ الله ﷺ يسمعُ ويحفظُ ويعي؛ إذ لا يشغلُهُ من أمرِ الدنيا شيءٌ، حتى بلغَ في الرواية ما رأيتَ.

* * *

---

(١) فتح الباري (٤/ ٢٣٩).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٥٣).

٥- وعلى طالبِ العلمِ أن تكون همَّتُهُ عاليةً:

فلا يرضى باليسير من العلمِ مع إمكانِ الكثير، وعليه ألا يُسَوِّفَ فيؤخِّرَ واجباتِ يومِهِ لغدِهِ، ولا يغفلُ عن استحضارِه للدروسِ، ولايضيِّعُ وقتَهُ.

ولقد كان العلماءُ من سَلَفِ هذه الأمَّةِ ﭬ ذوي هِمَمٍ في طَلَبِ العلمِ عاليةٍ، وأصحابَ قلوب من الدَّعَةِ عَاطِلةٍ، وبالجِدِّ والتشميرِ حاليةٍ، وآثارُهم في ذلك ناطقةٌ بأحوالهم، مُخْبِرَةٌ بدفائنِ قلوبهم.

وهذه -فانتبه لها- بعضُ أخبارهم:

«ذُكر في ترجمة المجد الفيروزآبادي صاحب القاموس أنَّه قرأَ صحيحَ مسلمٍ في ثلاثة أيامٍ بدمشق وأنشد:

قَـرَأتُ بِحَمْـدِ الله جَامِـعَ مُـسلِمٍ ... بِجَـوفِ دِمَـشق الـشَّامِ جَوفِ الإسلامِ

عَلَىٰ نَاصِـرِ الـدِّينِ الإمَـامِ ابن جَهْبَلٍ ... بِحَـضرَةِ حُفَّـاظٍ مَـشَاهيرَ أَعـلامِ

وَتَـمَّ بِتَوفِـيقِ الإلَـهِ وَفَـضلِهِ ... قـراءَةَ ضَـبطٍ في ثَلاثَـةِ أيَّـامِ

وقرأَ الحافظُ أبو الفضلِ العراقي صحيحَ مسلمٍ على محمَّدِ بن إسماعيل الخبَّازِ بدمشقَ في ستَّةِ مجالسَ متواليةٍ، قرأَ في آخر مجلسٍ منها أكثر من ثُلُثِ الكتابِ، وذلك بحضورِ الحافظِ زين الدين بن رجب وهو يعارضُ بنسخته.

وفي تاريخِ الذهبيِّ في ترجمةِ إسماعيل بن أحمد الحيري النَّيسَابُورِيِّ الضريرِ ما نصُّه: وقد سمع عليه الخطيبُ البغدادي بمكَّةَ صحيحَ البخاري بسماعِهِ من الكشميهني في ثلاثةِ مجالس: اثنان منها في ليلتين كان يبتدئ بالقراءة وقتَ المغربِ ويختم عند صلاةِ الفجر، والثالثُ من ضَحوَةِ النَّهارِ إلى طلوعِ الفجر.

قال الذهبي: وهذا شيء لا أعلمُ أحدًا في زماننا يستطيعه.

وقال الحافظُ السخاويُّ: وقعَ لشيخنا الحافظِ ابن حَجَرٍ أجَلُّ ممَّا وقَعَ لشيخه المجدِ اللغوي، فإنَّه قرأ صحيحَ البخاري في أربعين ساعة رمليَّة، وقرأ صحيح مسلمٍ في أربعةِ

مجالس سوى مجلس الخَتمِ في يومين وشيءٍ، وقرأ سُنَنَ ابن ماجه في أربعةِ مجالس، وقرأ كتابَ النسائي الكبير في عشرةِ مجالس، كل مجلس منها نحو أربع ساعات، وقرأ صحيحَ البخاري في عشرة مجالس كلُّ مجلسٍ منها أربعُ ساعات.

ثمَّ قال السَّخَاويُّ: وأسرعُ شيءٍ وقع له -أي: لابن حَجَر- أنَّه قرأ في رحلته الشامية مُعجَمَ الطَّبَرانِي الصغيرَ في مجلسٍ واحدٍ بين صلاتي الظهر والعصرِ.

قال: وهذا الكتابُ في مجلَّدٍ يشتملُ على نحو ألف حديث وخمس مئة حديثٍ»[(١)].

ولا يَحسَبَنَّ أحدٌ أنَّ هذه المواهبَ الجليلةَ والهِمَمَ الوثَّابَةَ من أخبار القرونِ الغابرةِ، ومن آثار الأمم البائدة، وأن النَّاسَ أصبحوا اليوم ولا همَّةَ لهم تَدفَعُ، ولا نشاطَ عندهم ينفعُ، بل ما زال الخيرُ في الأمَّةِ قائمًا، نسأل الله تعالى أن يجعلهُ فيها دائمًا.

وهذا مثالٌ يُضربُ ليُحتَذَى؛ قال الشيخُ القاسميُّ رَحِمَهُ اللهُ: «والعبدُ الضعيفُ، جامعُ هذا الكتابِ، قد مَنَّ الله عليه بفضله، فَأسمَعَ صحيحَ مسلم روايةً ودرايةً في مجالس من أربعين يومًا، آخرها في ٢٨ من شهر صفر الخيرِ سنة ١٣١٦ من الهجرة، وأسمَعَ أيضًا سُنَنَ ابن ماجه كذلك في مجالس من إحدى وعشرين يومًا آخرها في ٢٢ من شهر ربيع الأول سنة ١٣١٦ من الهجرة، وأسمَعَ أيضًا الموطَّأ كذلك في مجالس من تسعة عشر يومًا آخرها في ١٥ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣١٦ من الهجرة.

وطالعت بنفسي لنفسي «تقريب التهذيب» للحافظ ابن حجر، مع تصحيحِ سَهوِ القلمِ فيه، وضبطِهِ وَتَحْشِيَتِهِ من نسخةٍ مُصَحَّحَةٍ جدًّا في مجالس من عشرة أيام آخرها في ١٨ من شهر ذي الحجة سنة ١٣١٥ من الهجرة.

أقول: وهذه الكتبُ قرأتُها بإثرِ بعضها، فأجهَدتُ نفسي وبصري حتى رَمِدتُ، بأثر ذلك شفاني الله بفضلِهِ، وأشفقت من العَودِ إلى مثل ذلك، وتَبَيَّن أنَّ الخيرةَ في الاعتدال، نعم، لا يُنكَرُ أنَّ بعضَ النفوسِ لا تتأثَّرُ بمثل ذلك لقوَّة حواسِّها، وللإنسانِ على نفسِهِ

(١) قواعد التحديث (ص٢٦٢).

بصيرةٌ وهو أدرى بها»[١].

فأهلُ العلمِ أصحابُ هِمَمٍ عاليةٍ، لا يرضون بالدُّونِ، ولا يقنعون بها دون النجومِ، وإنَّما هم في سعي إلى استكمالِ ما فاتهم، واقتناصِ ما عزبَ عنهم، يأخذون أنفسَهم بالجِدِّ، وما أحدٌ أولى به منهم، هم في ظَمَإٍ نهارَهم، في سهرٍ ليلَهم، ونصبَ أعينهم غايةٌ يرمون إليها بأرواحهم كلِّها، ويرومونها بِطَاقَةِ النفسِ جميعها، ومع هذا الجدِّ كلِّه لا يصل إلا مَن وفَّقه اللهُ تعالى، وقليلٌ ما هم.

قال ابن جماعة رَحِمَهُ اللَّهُ: «نقلَ الخطيبُ البغداديُّ في (الجامع) عن بعضهم، قال: لا ينال هذا العلمَ إلا مَن عَطَّلَ دُكَّانَهُ، وخَرَّبَ بستانَه وهَجَرَ إخوانَهُ، ومات أقرب أهله فلم يشهد جنازته، وهذا كلُّه وإن كان فيه مبالغةٌ، فالمقصود به أَنَّهُ لابُدَّ من جمعِ القلبِ واجتماعِ الفكر»[٢].

وقال الربيعُ تلميذُ الشافعيِّ -رحمهما الله-: لـم أرَ الشافعيَّ آكلاً بنهارٍ، ولا نائمًا بليلٍ؛ لاهتمامِهِ بالتصنيف.

وروى أبو خيثمةَ رَحِمَهُ اللَّهُ **عن سفيان بن عيينة عن أيوب الطائي قال**: سمعتُ الشعبيَّ يقول: ما رأيتُ أحدًا من النَّاسِ أطلبَ للعلمِ في أُفقٍ من الآفاقِ من مسروقٍ.

وأخرج بسنده عن جرير بن حيَّان: أنَّ رجلاً رحلَ إلى مصرَ في هذا الحديثِ فلم يَحُلَّ رَحلَه حتى رجعَ إلى بيته: «**مَن سَتَرَ عَلَى أخيهِ في الدُّنْيَا، سَتَرَ الله عليهِ في الآخرةِ**»[٣].

قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الرجلَ الذي رحلَ في هذا الحديثِ هو: عُقْبَةُ بنُ عامرٍ، ركب إلى مَسلَمَةَ بن مَخْلَدٍ وهو أميرٌ على مصر، كما في المسند (٤/ ١٠٤)».

وقال الطَّحانُ في تعليقه على الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٢٦): هذا الرجلُ هو أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وقد روى هذا الحديثَ الحاكمُ في معرفةِ علومِ

(١) قواعد التحديث (ص٢٦٣).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم (ص٧٠).

(٣) كتاب العلم (ص١٢).

الحديثِ، معرفةِ عالي الإسنادِ (ص٩-١٠) بسياقٍ مفصَّلٍ.

«**وأخرجَ الخطيبُ** رَحِمَهُ اللَّهُ **بسنده عن مالكٍ قالَ**: قالَ سعيدُ بن المسيِّبِ: إن كنتُ لأغيبُ الأيامَ والليالي في طَلَبِ الحديثِ الواحِدِ.

وعن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيِّب قال: إن كنتُ لأرحلُ الأيامَ والليالي في طَلَبِ الحديث الواحد.

وعن أيوب قال: قال أبو قِلابَةَ: لقد أقمتُ بالمدينةِ ثلاثًا ما لي حاجةٌ إلا رجل عنده حديثٌ، يَقْدُمُ فأسمعه منه»[1].

وأنتَ -عصمك الله من الزَّلَلِ وجنَّبكَ الخَطَلَ- إذا نظرتَ إلى فحولِ علماءِ هذه الأمَّة رأيتَ العجبَ من انبعاثِ همَّاتِهِم وقوَّةِ عَزمَاتِهِم مع قصورِ ذات أيديهم، حتَّى إنَّ الشافعيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ وقد تربَّى يتيمًا لا يملكُ يقول:

الْجِدُّ يُدْنِي كُلَّ أَمرٍ شَاسِعٍ ... والْجِدُّ يَفْتَحُ كُلَّ بَابٍ مُغْلَقِ

وَأَحَقُّ خَلْقِ الله بالهَمِّ امرُؤٌ ... ذُو هِمَّةٍ يُبْلَىٰ بعَيشٍ ضَيِّقِ

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَىٰ القَضَاءِ وَحُكمِهِ ... بُؤسُ اللَّبِيبِ وطِيبُ عَيشِ الأَحْمَقِ

لَكِنَّ مَن رُزِقَ الْحِجَىٰ حُرِمَ الغِنَىٰ ... ضِدَّانِ يَفتَرِقَانِ أيَّ تَفَرُّقِ

قال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولدتُ باليمنِ[2] فخافت أمي عَلَيَّ الضَّيعَةَ، وقالت: الْحَقْ بأهلك، فتكون مثلهم؛ فإنِّي أخافُ أن تُغَلبَ على نَسبِك.

فجهَّزَتني إلى مكةَ، فقدمتُها، وأنا -يومئذٍ- ابنُ عَشرٍ (أو شبيهًا بذلك) فصرتُ إلى نَسِيبٍ لي، وجعلتُ أطلُبُ العلمَ، فيقولُ لي: لا تَشتغِل بهذا، أَقبِل على ما ينفعُك[3] فجعلتُ لذَّتي في هذا العلمِ وطَلَبِهِ، حتى رزقني الله منه ما رَزَق».

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٢٧).

(٢) يعني: في قبيلة يمنية، أو نشأتُ بها. كما قال الذهبي وابن حجر.

(٣) يعني: الكسب.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كُنتُ يتيمًا في حِجرِ أمي، ولم يكن معها ما تعطي المُعَلِّمَ؛ وكان المعلمُ قد رَضِيَ مني أن أخلُفه إذا قام، فلمَّا ختمتُ القرآنَ دخلتُ المسجدَ، فكنتُ أجالسُ العلماءَ، وأحفظُ الحديثَ والمسألة؛ وكان منزلُنا بمكةَ؛ في شِعبِ[1] الخَيفِ، وكنتُ أنظرُ إلى العَظمِ يلُوحُ، فأكتبُ فيه الحديثَ أو المسألَةَ، وكانت لنا جَرَّةٌ قديمةٌ، فإذا امتلأ العظمُ طرحتهُ في الجَرَّةِ»[2].

أخرج أبو حاتم الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده عن الحميديِّ قالَ: سَمِعتُ مُسلِمَ بنَ خالدٍ الزَّنجيَّ يقول للشافعي: أفتِ يا أبا عبد الله، فقد والله آنَ لك أن تُفتِي، وهو: ابنُ خمسَ عشرةَ سَنَةً.

وفي رواية له عن مسلم بن خالدٍ أيضًا؛ أنَّه قال لمحمد بن إدريسَ الشافعيِّ وهو: ابن ثماني عَشْرَةَ سَنَةً: أفتِ يا أبا عبد الله؛ فقد آن لك أن تُفتِي[3].

أَلَـم تَرَ إلى هِمَّةِ الشافعيِّ العاليةِ كيف كانت وثَّابةً به إلى سماءِ المعالي منذ وَعى الحياةَ، مع خِفَّةِ ذاتِ اليد، بل خُلُوِّها، حتى أفتى في هذه السنِّ التي يبلغها اليوم أكثرُ شبابِ الأمَّةِ وما يُحسنُ يتوضَّأ؟!

وقد سارَ على نهجِ المتقدمين من المبرِّزين مَن سَلَكَ بإحسانٍ سبيلَهم، وتَبعَ عن حُسْنِ بصرٍ وصِدقِ بصيرةٍ طريقتَهم ومنهاجَهَم، فمنَّ الله عليهم كما مَنَّ على مَن سبقهم فأصبحوا سادةً وإن كانوا متأخرين.

وكان من وصف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنَّه لا تكادُ نفسهُ تشبعُ من العلم ولا ترتوي من المطالعةِ، ولا تملُّ من الاشتغال ولا تكلُّ عن البحثِ، وقلَّ أن يدخل في علمٍ من العلومِ من بابٍ من أبوابهِ إلا ويُفتح له من ذلك البابِ أبوابٌ، ويستدرك مستدرَكَاتٍ في ذلك العلمِ على حُذَّاقِ أهلهِ مقصودةً بالكتابِ والسُّنَّةِ.

---

(١) الشِّعْبُ: الطريقُ بين جبلين.

(٢) آداب الشافعي ومناقبه (ص٢٤).

(٣) آداب الشافعي ومناقبه (ص٣٩).

ولقد سمعتُه في مبادئِ أمرِهِ يقول: إنَّه ليقفُ خاطري في المسألةِ أو الشيء أو الحالةِ التي تُشكلُ عليَّ فأستغفرُ الله تعالى ألفَ مَرَّةٍ أو أكثرَ أو أقلَّ، حتى ينشرحَ الصدرُ وينجليَ إشكالُ ما أشكل.

قال: وأكون إذ ذاك في السوقِ أو المسجد أو الدَّربِ أو المدرسةِ لا يمنعني ذلك من الذِّكرِ والاستغفارِ إلى أن أنالَ مطلوبِي.

وقال البزَّارُ رَحِمَهُ اللَّهُ **عن شيخ الإسلامِ**: وكان العلمُ كأنَّه قد اختلطَ بلحمِهِ ودمِهِ وسائرِهِ، فإنَّه -أي: العلم- لم يكن له مستعارًا، بل كان له شِعَارًا ودِثَارًا[1]»[2].

والهمَّةُ العاليةُ تقتضي انتفاعًا بالوقتِ إلى غايةِ المدى، واتصافًا بالاستفادةِ في كلِّ حالٍ وحينٍ.

وحين يفرِّغُ الله سبحانه عبدًا ويهبه الصحةَ، فإنَّ الحمدَ والشكرَ يلزمه لزومًا يشمله.

والتقصيرُ في أداء حقِّ هاتين النعمتين -الصحة والفراغ- حمدًا وشكرًا، تقصيرٌ فيه للنفس ظُلمٌ بَيِّنٌ، وغَبنٌ فاضحٌ، وجورٌ شنيعٌ.

أخرج البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ: «**نِعمَتَانِ مَغْبُونٌ فيهما كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، والفَرَاغُ**».

الحديث أخرجه أيضًا: الحاكم، والدارمي، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، وأبو نعيم.

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «**نِعمَتَانِ**» تثنية نعمة وهي الحالةُ الحسنةُ، وقيلَ: هي المنفعةُ المفعولةُ على جهةِ الإحسانِ للغيرِ.

والغَبنُ بالسكونِ وبالتحريكِ، وقال الجوهريُّ: هو في البيعِ بالسكونِ وفي الرأي بالتحريكِ، وعلى هذا فيصحُّ كلٌّ منهما في هذا الخبرِ؛ فإنَّ منَ لا يستعملهما فيما ينبغي فقد غُبِنَ لكونه باعهما ببخسٍ، ولـم يُحمد رأيُه في ذلك.

(١) **الشِّعَارُ**: هو ما يلي البدن من الثياب، **والدِّثَارُ**: هو ما يُتَدَثَّرُ به.
(٢) غاية الأماني (٢/ ١٦٢).

قال ابن بطال: معنى الحديث: أنَّ المرءَ لا يكون فارغًا حتى يكون مكفيًّا صحيحَ البدنِ، فمَن حصلَ له ذلك فليحرص على ألَّا يُغبَنَ بأن يترك شكرَ الله على ما أنعم به عليه، ومن شكرِهِ: امتثالُ أوامرِهِ، واجتنابُ نواهيه، فمَن فرَّطَ في ذلك فهو المغبونُ، وأشار بقوله: (كثير من النَّاسِ) إلى أنَّ الذي يوفَّق لذلك قليل»[1].

وقال ابن الجوزي: قد يكون الإنسانُ صحيحًا ولا يكون متفرِّغًا؛ لشغله بالمعاشِ، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسلُ عن الطاعةِ فهو المغبونُ، وتمامُ ذلك: أنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرة، وفيها التجارة التي يظهرُ ربحها في الآخرةِ، فمَن استعملَ فراغهَ وصحته في طاعةِ الله فهو المغبوطُ، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبونُ؛ لأنَّ الفراغَ يعقبه الشغلُ، والصحةَ يعقبها السقمُ، ولو لـم يكن إلا الهَرَمُ، كما قيل:

يَسرُّ الفَتَىٰ طُولُ السَّلامَةِ والبَقا ... فَكَيفَ تَرَىٰ طُولَ السَّلامَةِ يَفْعَلُ

يَردُّ الفَتَىٰ بَعدَ اعتِدَالٍ وَصِحةٍ ... يَنُوءُ إذَا رَامَ القِيَامَ ويُحمَلُ

وقال الطيبيُّ: ضربَ النبي ﷺ للمكَلَّفِ مثلاً بالتاجرِ الذي له رأسُ مالٍ، فهو يبتغي الربحَ مع سلامةِ رأسِ المالِ، فطريقه في ذلك أن يتحرَّى فيمَن يعامله ويلزم الصدقَ والحذقَ لئلاَّ يُغبن، فالصحةُ والفراغُ رأسُ المالِ، وينبغي له أن يعاملَ الله بالإيمانِ، ومجاهدةِ النفسِ وعدوِّ الدين، ليربحَ خيري الدنيا والآخرةِ، وقريبٌ منه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف:١٠]. الآيات، وعليه أن يجتنبَ مطاوعةَ النفسِ ومعاملةَ الشيطانِ لئلاَّ يضيعَ رأسُ ماله مع الربحِ.

وقوله في الحديث: «**مَغْبُونٌ فيهمَا كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ**» كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣]. فالكثيرُ في الحديثِ في مقابلِ القليلِ في الآيةِ.

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٣٤).

وقال **القاضي أبو بكر بن العربي**: اختُلفَ في أوَّلِ نعمةِ الله على العبد، فقيلَ: الإيمان، وقيلَ: الحياة، وقيلَ: الصحة، والأول أولَى؛ فإنَّه نعمةٌ مُطْلَقَةٌ، وأمَّا الحياةُ والصحةُ فإنهما نعمةٌ دنيويةٌ، ولا تكون نعمةً حقيقة إلا إذا صاحبت الإيمانَ، وحينئذٍ يُغبن فيها كثيرٌ من النَّاس، أي: يذهب ربحُهُم، أو ينقصُ، فَمَن استرسلَ مع نفسِهِ الأمَّارَةِ بالسُّوءِ الخَالِدَةِ إلى الراحةِ فترك المحافظَة على الحدودِ والمواظبةَ على الطاعةِ فقد غُبِنَ، وكذلك إذا كان فارغًا؛ فإنَّ المشغولَ قد يكون له معذرةٌ بخلاف الفارغِ، فإنَّه يرتفعُ عنه المعذرةُ وتقومُ عليه الحُجَّةُ[1].

فالبدارَ البدارَ، فالأيامُ تمضِي والعمرُ ينقضِي، والكيِّسُ مَن أخذَ من قوتِهِ لضعفِهِ ومن فراغِهِ لشغله؛ فأدَّى بذلك حقَّ الله عليه فيما أنعمَ عليه به، فسلمَ من الغَبْنِ وحقَّقَ الربحَ وفاز بالرضوانِ.

وقد كان الحرصُ على العمرِ منهجَ السَّلَفِ وعادتَهم، حتى ليقول الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أدركتُ أقوامًا كان أحدُهُم أشحَّ على عُمرِهِ منه على درهمِهِ».

وأصلُ هذا الأمرِ مغروسٌ في القلبِ، فإن صلحَ صلحت فروعُهُ، وإن فسدَ هام القلبُ على وجهه في أودية ضياعٍ لا مَخْلَصَ منها ولا مَعْدَى عنها.

ومن قبل قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لَقَدْ كَانَ يَسبِي القَلْبَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ ... ثَمَانُونَ بَل تِسْعُونَ نَفسًا وأرجَحُ

يَهِيمُ بِهَذَا ثُمَّ يَأْلَفُ غَيْرَهُ ... وَيَسلُوهُمُ مِن فَورِهِ حِينَ يُصبِحُ

وَقَدْ كانَ قَلبِي ضَائِعًا قَبلَ حُبِّكُمْ ... وَكَانَ بِحُبِّ الْخَلقِ يَلهُو ويَمرَحُ

فَلَمَّا دَعَا قَلبِي هَوَاكَ أجَابَهُ ... فَلَستُ أرَاهُ عَن خِبَائِكَ يَبْرَحُ

ثُمَّ تأتيك جوامعُ الكَلِمِ تتحدَّرُ من بيانِ النبي ﷺ كما يتحدَّرُ اللؤلؤ من سلكِهِ والندى عن ورده، في حنوٍّ بالغٍ ورقةٍ وادعةٍ.

---

(١) شرح السنة (١٤/ ٢٢٤).

يأتيك بيانُهُ ليرشدكَ، فإن كنتَ ذا فطنةٍ فانتبه لكلام نبيِّك وإلا فلا تلومنَّ إلا نفسك.

عَن عَمروِ بنِ مَيمُونٍ الأَودِيِّ قَالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ لرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: **«اغتَنِمْ خَمسًا قَبلَ خَمسٍ: شَبَابَكَ قَبلَ هَرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قَبلَ سَقَمِكَ، وغِنَاكَ قَبلَ فَقْرِكَ، وفَرَاغَكَ قَبلَ شُغلِكَ، وحَيَاتَكَ قَبلَ مَوتِكَ»**.

أخرجه البغوي رَحِمَهُ اللهُ في «شرح السنة» (١٤/ ٢٢٤)، وقال: هذا حديثٌ مرسلٌ، وقال محقِّقَاه: «وكذلك أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ١٤٨)، والخطيب في اقتضاء العلم العمل (ص١٠١)، لكن أخرجه الحاكم (٤/ ٣٠٦) موصولاً من طريقٍ أخرى عن ابن عباس رفعه، وإسنادُه صحيحٌ، وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وقال الألباني: «حديثٌ صحيحٌ، وهذا إسنادٌ مرسلٌ حسنٌ، لكن رواه ابن أبي الدنيا في «قِصرِ الأملِ» (٢/ ١/ ٢)، والحاكم (٤/ ٣٠٦) موصولاً من طريقٍ أخرى عن ابن عباس مرفوعًا، وصحَّحه هو والذهبي على شرط الشيخين، وهو كما قالا»[١].

* * *

(١) اقتضاء العلم العمل (ص١٠٠).

٦- وينبغي لطالبِ العلمِ أن يهتمَّ بضبطِ ما يحفظُ ضبطًا صحيحًا مُتقَنًا:

وذلك بتصحيحه قبل حفظِهِ على شيخِهِ أو غيره ممَّن يثقُ بعلمِهِ، ويُعينه على أمرِهِ.

وهذا الأصلُ أمسُّ الأصولِ رَحِمًا بتعلُّمِ العربيةِ وإتقانها، وله اتصالٌ وثيقٌ بما سمَّاه علماءُ الحديثُ بـ: (التصحيفِ والتحريف) وقد أفردَ بعضُ الأدباءِ مصنفاتٍ قيِّمةً في التصحيفِ والتحريفِ.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي لطالبِ الحديثِ أن يكون عَارِفًا بالعربيةِ، قال الأصمعيُّ: أخشى عليه إذا لم يعرف العربية أن يدخلَ في قوله ﷺ: «**مَن كَذَبَ عليَّ مُتَعَمِّدًا فليتبوأ مقعدهُ من النَّارِ**»[1]. فإن النبي ﷺ لم يكن يَلْحَنُ، فمهما رويتَ عنه ولحنتَ فيه كذبت عليه.

وأما التصحيف، فدواؤه أن يتلقاه من أفواهِ المشايخ الضابطين»[2].

والتصحيف: هو الخطأ في الصحيفة، ومنه (الصَّحَفِيُّ) وهو مَن يخطئ في قراءة الصحيفة فيغيِّرُ بعضَ ألفاظها بسببِ خطئِهِ في قراءتها[3].

وعن السببِ في وقوعِ التصحيفِ يقول الطحَّانُ: «غالبًا ما يكون السببُ في وقوعِ الراوي في التصحيفِ هو أخذُ الحديثِ من بطونِ الكتبِ والصُّحُفِ، وعدم تلقِّيه عن الشيوخ والمدرِّسين، ولذلك حَذَّرَ الأئمةُ من أخذِ الحديثِ عمَّن هذا شأنُهم، وقالوا: لا يُؤخذُ الحديثُ من صُحُفِيٍّ، أي: لا يُؤخذ عمَّن أخذه من الصُّحُفِ».

وقد عاب ابن قُتَيبة رَحِمَهُ اللَّهُ أهل زمانه لركونهم إلى الدَّعَةِ والخَفض، وتركِ كَدِّ النَّظَرِ وإِعمالِ الفكر والتأمُّلِ، عابهم ابنُ قُتَيبة والأدبُ غَضٌّ والزمانُ غلامٌ، ورحم الله ابن قُتَيبةَ، ما كان يقول لو أدرك زمانَنَا؟!

---

(١) **حديث متفق عليه**؛ قال المنذري: هذا الحديثُ قد روي عن غير واحد من الصحابة في الصحاح، والسنن، والمسانيد وغيرها، حتى بلغ مبلغ المتواتر. و«**يتبوأ مقعده من النار**» أي: لينزل منزله من النار.

(٢) الباعث الحثيث (ص١٢٢).

(٣) تيسير مصطلح الحديث (ص١١٤).

قال ابن قُتَيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنِّي رأيتُ كثيرًا من كُتَّابِ أهل زماننا كسائرِ أهله قد استطابوا الدَّعَةَ[١]، واستوطئوا مركَب العجز، وأعفَوا أنفسَهم من كدِّ النظرِ، وقلوبَهم من تعبِ التفكُّرِ، حين نالوا الدَّرَك بغير سببٍ، وبلغوا البغيةَ بغير آلةٍ؛ ولعمري كان ذلك فأين هِمَّةُ النفسِ؟ وأين الأَنَفَةُ من مُجَانسةِ البهائم؟.

وأيُّ موقفٍ أخزى لصاحبه من موقفِ رجلٍ من الكتَّابِ اصطفاه بعضُ الخلفاءِ لنفسه وارتضاه لسرِّه، فقرأ عليه يومًا كتابًا وفي الكتابِ: (ومُطِرنَا مَطَرًا كَثُرَ عنهُ الكَلأُ) فقال له الخليفةُ ممتحنًا له: وما الكلأ؟ فتردَّد في الجوابِ وتعثَّرَ لسانهُ، ثمَّ قال: لا أدري، فقال: سَل عنه.

ومِن مُقامٍ آخر في مثل حالِهِ قرأ على بعضِ الخلفاءِ كتابًا ذُكر فيه: (حَاضرُ طيِّئٍ) فصحَّفَهُ تصحيفًا أضحكَ منه الحاضرين»[٢].

قال في الاقتضاب: «قوله: «ومن مُقامٍ آخرَ في مثلِ حالِهِ» هذا الكاتبُ الثاني: هو شجاعُ بن القاسمِ، كاتب أُوتامِش التُّركيِّ، وكان يتولَّى عَرضَ الكتبِ على المستعين أحمد ابن محمد المعتصم، وكان جاهلاً لا يُحسِن القراءة، إلا أنَّه كان ذكيًّا، تُقرأُ عليه عشرةُ كتبٍ فيحفظ معانيها، ويدخل إلى المستعين يسامِرُهُ فيها، ولا يغلَط في شيءٍ منها.

وكان يصَوَّر له الحرفُ فيكتب مثالَه، فقرأ على المستعين كتابًا كلَّفه قراءتَه، وكان فيه: (حَاضِرُ طَيٍّ) وطي قبيلةٌ من قبائل اليمنِ، وحاضرهم مَن حضر منهم، فصحَّفَه وقال: (جاءَ ضرطِي) والضرطُ: لغةٌ في الظرطِ، فضحكَ المستعينُ»[٣].

وأخرج الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده عن الحسن بن عليل قال: حدثنا أبو خيثمةَ زهيرُ بن

---

(١) **الدَّعَةُ**: الراحةُ وخَفَضُ العيش.

(٢) أدب الكاتب (ص٦).

(٣) الاقتضاب في شرح أدب الكُتَّاب (ص٧٢) من القسم الأول.

حربٍ من كتابِهِ، سمعته يمليه على ابنه أبي بكر، فتقدَّمتُ قال: يا عسكري طفَّلتَ[١] على ابني، اقعد اكتب، قال: نا عبد الله بن بكر السهمي، نا أبي، نا سالـم بن قتيبة قال: «كنتُ عند ابن هُبيرة الأكبر، فجرَى الحديثُ، حتى جرى ذكرُ العربيةِ فقال: والله ما استوى رجلان دِينهما واحدٌ، وحَسَبُهُما واحد، ومروءتُهما واحدةٌ، أحدهما يلحن، والآخرُ لا يلحن، إنَّ أفضلهما في الدنيا والآخرة الذي لا يلحن. قلتُ: أصلحَ الله الأميرَ، هذا أفضلُ في الدنيا لفضلِ فصاحتِهِ وعربيَّتِه، أرأيتَ الآخرةَ، ما بالُهُ فُضِّلَ فيها؟ قال: إنَّه يقرأُ كتابَ الله على ما أنزلَ اللهُ، وإنَّ الذي يلحن يحمله لحنُه على أن يُدخلَ في كتاب الله ما ليس فيه، ويُخرج منه ما هو فيه، قال: قلتُ: صدقَ الأميرُ وبَرَّ.

وعن عياش بن المغيرة بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: جاء الدَّرَاوَرِدِي -يعني: عبد العزيز ابن محمد- إلى أبي يعرضُ عليه الحديثَ، فجعلَ يقرأُ ويلحن لحنًا منكرًا، فقال له أبي: ويحك يا دراوردي، أنتَ كنتَ بإقامةِ لسانِك قبل هذا الشأنِ أحرَى.

وعن حاجب بن سليمان قال: سمعتُ وكيعًا يقول: أتيتُ الأعمشَ أسمعُ منه الحديثَ، وكنتُ ربما لَحَنتُ، فقال لي: يا أبا سفيان تركتَ ما هو أولى بك من الحديثِ. فقلتُ: يا أبا محمد، وأيُّ شيءٍ أولى بي من الحديث؟ فقال: النحو. فأملى عليَّ الأعمشُ النحوَ، ثمَّ أملى عليَّ الحديثَ.

وعن شعبة قال: مَن طلبَ الحديثَ فلم يُبصِر العربيةَ، فمثله كمثلِ رَجلٍ عليه بُرْنُس وليس له رأسٌ.

وعن أبي زيد النَّحوِيِّ قال: كان الذي حَدَاني على طلبِ الأدبِ والنحوِ أنِّي دخلتُ على جعفر بن سليمان، فقال: ادنُه. فقلتُ: أنا دَنِيٌّ. فقال: لا تقل يا بني: أنا دَنِيٌّ، ولكن قل: أنا دَانٍ»[٢].

---

(١) دخلت من غير دعوة ولا إذنٍ.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٥).

فالقراءةُ على الشيخِ عصمةٌ من التصحيفِ والتحريفِ، ولاسيَّما إذا كان اللسانُ العربيُّ الفصيحُ أندرَ من الكبريتِ الأحمرِ، والعجمةُ طاغيةً فاشيةً، والجهلُ شائعًا فاحشًا.

واعلم أنَّ هذه سبيلُ الذين ساروا من قبلك على السبيل السَّوِيِّ من سَلَفِ الأمَّةِ الصالحِ؛ يقرءون على شيوخهم فَيُحكِمُونَ عليهم الأصولَ، لذلك لم يُحرموا الوصولَ.

وإليك مثالاً عجيبًا غريبًا علينا، وإن كان شائعًا في عصره وما قبل عصره من عصور نهضة الإسلام وعزَّةِ المسلمين.

هذا المثالُ هو العلامةُ ابنُ هشامٍ النَّحوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ ورد في ترجمتِهِ أنَّه: لَزِمَ الشهابَ عبد اللطيف بن المرحل، وتلا على ابن السراج، وسمعَ على أبي حيَّان ديوانَ زُهَيرِ بن أبي سُلمَى المزني، ولم يلازمه، ولا قرأ عليه غيره، وحضرَ دروسَ التاج التبريزي، وقرأ على التاجِ الفاكهاني شَرحَ الإشارةِ له إلا الورقةَ الأخيرةَ.

أَتَرَى؟! قرأ على التاجِ الفاكهاني شَرح الإشارةِ له إلا الورقةَ الأخيرةَ.

أَتُبصِرُ هذه الدِّقَّةَ في الأداءِ والأمانةَ في التحمُّلِ؟!

ألا فاعلم -أرشدك الله للخيرِ- أنَّ لهذه الأمَّة خاصيةً انفردت بها من سائر الأممِ؛ وهي خَاصيةُ الإسنادِ، والإسنادُ أصلٌ يتفرَّعُ عنه الضبطُ تَحَمُّلاً وأداءً.

نقل السَّيُوطِيُّ في (تدريب الراوي) عن ابن حَزمٍ قال: «نَقلُ الثِّقَةِ عن الثِّقَةِ يبلغُ به النبيﷺ مع الاتصالِ، خَصَّ الله به المسلمين دون سائرِ المللِ، وأمَّا مع الإرسالِ والإعضالِ فيوجد في كثيرٍ من اليهودِ، لكن لا يقربون فيه من موسى قربَنَا من محمدٍﷺ، بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عصرًا، وإنَّما يبلغون إلى شمعونَ ونحوِهِ.

قال: وأمَّا النصارى فليس عندهم من صفةِ هذا النقلِ إلا تحريم الطلاقِ فقط، وأمَّا النقلُ بالطريق المشتملة على كذابٍ أو مجهولِ العينِ فكثيرٌ في نقلِ اليهودِ والنصارى.

وقال أبو علي الجياني: خَصَّ الله تعالى هذه الأمَّةَ بثلاثةِ أشياء، لم يعطها مَن قبلها: الإسناد، والأنساب، والإعراب»[(١)].

---

(١) تدريب الراوي (٢/ ١٥٩).

فعلى طالبِ العلمِ أن يصحِّحَ ما يقرؤه قبل حفظِهِ تصحيحًا متقنًا إمَّا على الشيخِ أو على غيره مِمَّن يعينه، ثمَّ يحفظه بعد ذلك حفظًا مُحكمًا، ثمَّ يُكرِّر عليه بعد حفظه تكرارًا جيدًا، ثُمَّ يتعاهده في أوقاتٍ يقررها لتكرارِ مواضيه، ولا يحفظ شيئًا قبل تصحيحه لأنَّه يقعُ في التحريفِ والتَّصحيفِ، وقد تَقدَّمَ أنَّ العلمَ لا يُؤخذ من الكتبِ، فإنَّه من أضرِّ المفاسد[١].

❊ ❊ ❊

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم (ص١٢١).

٧- ومن أهمِّ ما ينبغي لطالبِ العلمِ أن يراعيه: الحرصُ والمواظبةُ والخُلُقُ الكريمُ:

إذ ينبغي لطالبِ العلمِ أن يكون حريصًا على التعلُّمِ مواظِبًا عليه في جميع أوقاتِهِ؛ ليلاً ونهارًا، حَضَرًا وسَفَرًا.

العلمُ شيءٌ لا يعطيك بعضَه حتى تعطيه كُلَّك، وأنتَ إذ تعطيه كلَّك من إعطائه البعض على غَرَرٍ.

هذه قولةُ أبي يوسف صاحبِ أبي حنيفة -رحمهما الله-، ويا لها من قولة!! بل يا لها من قانون حازمٍ حاسمٍ كالسيفِ!! لا يتخلَّفُ عن نفاذٍ وشمولٍ، إلا أن يخرقه الله الذي بيده مقاليدُ الأمورِ.

وما بَلَغَ مَن بَلَغَ في هذا الأمرِ شأنًا، ولا ارتفعَ مَن ارتفعَ فيه قدرًا، إلا وهذا القانونُ يشمله، ثم تشملهما رحمةُ الله ويحوطهما توفيقُهُ، وترعاهما عنايتُهُ.

قال الحُميديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «خرجتُ مع الشافعيِّ إلى مصرَ، وكان هو ساكنًا في العُلُوِّ، ونحنُ في الأوساطِ، فربَّما خرجتُ في بعضِ الليلِ، فأرى المصباحَ، فأصيحُ بالغلامِ فيسمعُ صوتي، فيقولُ: بحقِّي عليه، ارقَ، فأرقى: فإذا قرطاسٌ ودَوَاةٌ؛ فأقولُ: مَه يا أبا عبد الله، فيقول: تفكَّرتُ في معنى حديثٍ، أو في مسألةٍ، فخِفتُ أن يذهبَ عليَّ، فأمرتُ بالمصباحِ وكتبتُه»[١].

كان الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ على العلمِ حريصًا؛ فَنَالَ منه ما كانَ به جبلاً راسِخًا وطَودًا شامخًا.

وكان الأئمةُ من قبله ومن بعدِه حِراصًا على العلمِ كذلك، من بدايةِ طلبهم أو يوفون على الغايةِ، حرصٌ وجِدٌّ وسعيٌ وإقبالٌ.

أخرجَ الخطيبُ بسنده عن عبد الله بن أحمد -رحمهما الله-، قالَ: سمعتُ أبي يقولُ:

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (ص٤٤).

«كنتُ ربَّما أردتُ البكورَ إلى الحديثِ، فتأخذ أمي ثيابي فتقول: حتى يُؤذِّنَ النَّاسُ، وحتى يُصبحوا، وكنتُ ربَّما بكَّرتُ إلى مجلس أبي بكر بن عيَّاشٍ وغيره.

وعن أحمد بن يحيى بن الجارود قال: قال علي بن المديني: إنَّ شَريكًا قال: صلَّيتُ مع أبي إسحاق ألف غَداة.

وعن أحمد بن إبراهيم الدَّورَقِيِّ قال: سمعتُ سَلَمَةَ بن عَقَّار يقول: إذا جاءَ الرجلُ يطلبُ الحديثَ، ولم يَجِئ في المجلس الآخرِ ونَعلُهُ مُعَلَّقة في يده فايأس من خيرِهِ»[1].

وعلَّقَ الطحانُ على قولِ سَلَمَةَ فقال: «المرادُ من قولِ سَلَمَةَ هذا: أنَّ طالبَ الحديثِ إن لم يُكثر المجيءَ والذهابَ والمواظبةَ على حضورِ مجالس الحديثِ فلا خيرَ فيه، فهو كنايةٌ، وليس المرادُ حقيقةَ الصورةِ التي صَوَّرَها، إذ ربَّما تهترئ نعلاه فيشتري غيرهما، ولا يحتاج أن يأتي بنعله وهي معلقةٌ في يده».

والخُلُقُ الكريمُ أَثَرٌ من آثارِ العلمِ النافعِ وثمرةٌ من ثمراتِهِ؛ لأنَّ العلمَ النافعَ يُمسك زمامَ القلبِ فيوجِّهه فلا يتحرك إلا على سُنَّةٍ أو بدليلٍ.

قال سفيان الثوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إن استطعت ألَّا تَحُكَّ رأسك إلا بأثرٍ فافعل.

وقال الحسنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: كان الرجلُ يطلبُ العلمَ، فلا يَلبَث أن يُرى ذلك في تَخَشُّعِهِ، وهَديِهِ، ولسانِهِ، وبصرِهِ، ويَدِهِ.

وقال عاصم بن عصام البيهقي: بِتُّ ليلةً عند أحمد بن حنبل، فجاءَ بالماءِ فوضعه، فلمَّا أصبح نظرَ إلى الماءِ فإذا هو كما كان. فقال: سبحانَ الله! رجلٌ يطلبُ العلمَ لا يكون له وِردٌ من الليل!!

وقال سفيانُ بن عيينة: كان الشابُّ إذا وقعَ في الحديثِ احتَسَبَهُ أهلُهُ.

قال الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: يعني أنَّه كان يجتهدُ في العبادةِ اجتهادًا يقطعه عن أهله، فيحتسبونه عند ذلك.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ١٥٠).

وقال أبو عمرو محمد بن أبي جعفر بن حمدان: كان والدي أبو جعفر يصلي صلاةَ المغرب مع أبي عثمان، يعني: سعيد بن إسماعيل، وربَّما أقامَ في بعضِ الليالي حتى يُصَلِّي معه صلاةَ العشاءِ الآخرة، فإذا أبطأ علينا خرجتُ إلى مسجدِ أبي عثمان، فخرجتُ ليلةً إلى مسجدِ أبي عثمان، فخرجَ علينا لصلاة العشاء الآخرةِ -وعليه إزارٌ ورداءٌ- فصلَّى بنا، ثمَّ دخلَ دارَه، ورجعتُ مع أبي إلى البيتِ، فقلتُ لأبي: يا أبه، أبو عثمان قد أحرم؟ فقال: لا، ولكنه هُوَ ذا يسمع مني المسنَدَ الصحيحَ الذي خرَّجته على كتابِ مسلم، فإذا سمعَ بسنَّةٍ لـم يكن استعملها فيما مضى، أحبَّ أن يستعملها في يومه وليلته، وإنَّه سمع في جُملةِ ما قُرئ عليَّ أنَّ النبيﷺ صلَّى في إزارٍ ورداءٍ، فأحبَّ أن يستعملَ تلك السنَّةَ قبل أن يصبحَ.

ومن ثمراتِ الحرصِ على العلمِ: المذاكرةُ ومداومة النظرِ؛ فإنَّ بالمذاكرةِ يثبتُ المحفوظُ ويتحرَّر، ويتأكَّد ويتقرَّر، ويزداد بحسب كثرةِ المذاكِرِ.

ومذاكرةُ حاذقٍ في الفنِّ ساعةً، أنفعُ من المطالعةِ والحفظ ساعاتٍ، بل أيامًا؛ وليكن في مذاكرته مُتحرِّيًا الإنصافَ، قاصدًا الاستفادةَ والإفادةَ، غير مترفِّعٍ على صاحبِه بقلبهِ ولا بكلامِه ولا بغير ذلك من حاله، مخاطبًا له بالعبارةِ الجميلةِ الليِّنةِ، فبهذا ينمو علمهُ وتزكوا محفوظاتهُ[1].

وقد كان حرصُ الأئمةِ على العلمِ عظيمًا، حتى إنَّ الناظرَ في آثارهم يَظنُّ أنَّهم من تنافسهم كانوا على إخوانهم حاقدين، ولهم حاسدين، وما كانوا في حقيقة الأمر كذلك، بل هي المنافسةُ المشروعةُ والسعيُ الجميلُ.

أخرج الخطيبُ بسنده عن شعبةَ قال: وأيُّ شيءٍ ألذُّ من أن تَلقى شيخًا في فَيءٍ قد لقي النَّاسَ، وأنتَ تَستَثيرهُ وتُخرج منه العلمَ، وقد خَلَوت به؟!

وعن قيس بن الربيع قال: كُنَّا إذا أتينا المشايخَ قدَّمنا سفيانَ الثوري فكتبَ لنا، فكان أخفَّنا كتابةً، فكان إذا مَرَّ بحديثٍ صغيرٍ حَسَنٍ حَفِظَهُ، فلم يكتبه، ففطِنَّا له، فعَزَلْنَاه.

(١) قواعد التحديث (ص٧٦).

قال الخطيبُ بعد أن ساق رواياتٍ كثيرةً في هذا المعنى: «والذي نَستَحِبُّه إفادة الحديث لمن لم يسمعه، والدلالة على الشيوخ، والتنبيه على رواياتهم؛ فإنَّ أقلَّ ما في ذلك النصح للطالبِ، والحفظ للمطلوبِ مع ما يُكتَسَبُ به من جزيلِ الأجرِ وجميلِ الذِّكرِ.

وعلَّقَ الطحَّانُ قائلاً: رحم الله الخطيبَ، لو أشار إلى ما فعله بعضُ رواةِ الحديثِ إشارةً وأنَّه وقع ذلك من بعضهم، واكتفى بذلك، ولم يُطنِبَ بِسَردِ ما يزيد على عشرين روايةً أكثرها عن مشاهيرِ علماءِ الحديثِ وأئمتهم تظهرهم بمظهر الكاتمين للعلمِ المحتالين في الانفرادِ بسماع الحديثِ من بعض الشيوخ.

ونحن على فرض صِحَّةِ هذه الحكايات عنهم لا ندري ما هي ظروفهم، ولا ملابسات تلك الحالات الفردية، فمن المعلوم المشهور عن هؤلاء الأئمة أنهم أفنوا أعمارهم في نشر الحديثِ وإسماعِه للطلبةِ حِسبَةً لا يبتغون بذلك إلا وجهَ الله تعالى»[1].

بل ذَكَرَ الخطيبُ بعقبِ ما مَرَّ صنيعَ الأئمة في حضِّهم على الإفادةِ، فروى عن سفيان الثوري أنَّه قال: يا معشرَ الشبابِ، تعجَّلوا بركةَ هذا العلمِ، فإنَّكم لا تدرون لعلكم لا تبلغون ما تُؤَمِّلونَ منه، ليُفِد بعضكم بعضًا.

وعن عبد الله بن المبارك قال: إنَّ أولَ منفعةِ الحديثِ أن يفيد بعضكم بعضًا.

وعن يحيى بن معينٍ قال: أوَّلُ بَرَكَةِ الحديثِ إفادتُه.

وكان لأصحاب الحديثِ وأئمَّةِ الرواية اليدُ الطولى في ضربِ الأمثالِ للأجيالِ على الجدِّ والمواظبةِ والحرصِ على التحمُّلِ لحديثِ رسول الله ﷺ.

أخرج الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده عن ابن شهابٍ أنَّه: كان يسمعُ العلمَ عن عروةَ وغيره، فيأتي إلى جاريةٍ له وهي نائمةٌ فيُوقظها، فيقول: اسمعي، حدثني فلانٌ كذا وفلانٌ كذا، فتقول: ما لي وما لهذا الحديثِ؟ فيقول: قد علمتُ أنَّك لا تنتفعين به، ولكن سمعتُه الآن فأردتُ أن أستذكره.

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٤٥).

وعن إبراهيم النخعيِّ قال: مَن سَرَّهُ أن يحفظَ الحديثَ فليحدِّث به، ولو أن يحدِّثَ به مَن لا يشتهيه، فإنَّه إذا فعل ذلك كان كالكتاب في صدرهِ[١].

فالحرصُ على العلمِ يُلزِمُ طالبه أن يلزمَ حلقةَ شيخِهِ في التدريسِ والإقراءِ، بل وجميعِ مجالسِهِ إذا أمكن، فإنَّه لا يزيدهُ إلا خيرًا وتحصيلاً، وأدبًا وتفضيلاً، كما قال عليٌّ ﷺ: «ولا تشبع من طول صحبتِهِ؛ فإنَّما هو كالنخلةِ تنتظر متى يسقطُ عليك منها شيءٌ».

ويجتهدُ على مواظبتِهِ في خدمتِهِ والمسارعَةِ إليها، فإنَّ ذلك يكسبه شرفًا وتبجيلاً.

ولا يقتصرُ في الحلقةِ على سماعِ درسهِ فقط إذا أمكنه، فإنَّ ذلك علامةُ قصورِ الهمَّةِ وعدمِ الفلاحِ وبُطءِ التنبُّهِ، بل يعتني بسائرِ الدروسِ المشروحةِ ضبطًا وتعليقًا ونقلاً إن احتمل ذهنهُ ذلك، ويشاركُ أصحابها حتى كأنَّ كلَّ درسٍ منها له، ولعمرُ الله إنَّ الأمرَ كذلك للحريصِ، فإن عجزَ عن ضبطِ جميعها اعتنى بالأهمِّ فالأهمِّ منها.

وينبغي أن يتذاكرَ مواظبو مجلسِ الشيخِ ما وقعَ فيه من الفوائدِ والضوابط والقواعدِ وغير ذلك، وأن يعيدوا كلامَ الشيخ فيما بينهم، فإنَّ في المذاكرةِ نفعًا عظيمًا، وينبغي المذاكرةُ في ذلك عند القيامِ من مجلسِهِ قبل تَفَرُّقِ أذهانهم وتشتُّتِ خواطرهم وشذوذِ بعضِ ما سمعوه عن أفهامهم، ثمَّ يتذاكرونه في بعضِ الأوقاتِ.

قال الخطيبُ: وأفضلُ المذاكرةِ مذاكرةُ الليل، وكان جماعةٌ من السَّلَفِ يبدءون في المذاكرةِ من العشاءِ، فربَّما لـم يقوموا حتى يسمعوا أذانَ الصبح.

فإن لم يجد الطالبُ مَن يذاكره ذاكرَ نفسَه بنفسِهِ، وكرَّر معنى ما سمعه ولفظَه على قلبه، ليعلَقَ ذلك بخاطره، فإن تكرارَ المعنى على القلبِ كتكرارِ اللفظِ على اللسان سواءً بسواءٍ، وقلَّ أن يفلحَ مَن اقتصر على الفكرِ والتعقُّلِ بحضرةِ الشيخِ خاصةً، ثمَّ يتركه ويقوم ولا يعاوده[٢].

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٦٨).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم (ص١٤٢).

٨- وعلى طالبِ العلمِ أن يداومَ على الطَّلَبِ حياتَه، مهما بلغَ من العلمِ وحَصَّلَ من العلومِ:

وعليه أن يتحمَّلَ في ذلك المشَقَّةَ فما فوقها.

قال الله تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٧٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾. وقال الحسن البصري: ليس عالِـمٌ إلا فوقه عالـمٌ حتى ينتهي إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وعن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عباس فحدَّثَ بحديثٍ عجيب، فتعجَّبَ رجلٌ فقال: الحمدُ لله، فوقَ كلِّ ذي علمٍ عليمٌ، فقال ابن عباس: بئس ما قلتَ، الله العليمُ فوق كلِّ عالمٍ، يكون هذا أعلمَ من هذا وهذا أعلمَ من هذا، والله فوق كلِّ عالمٍ، وهكذا قال عِكرمةُ»[١].

وعن أُبَيِّ بن كَعبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «**قَامَ موسَى** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **خَطِيبًا في بني إسرَائيلَ، فَسُئلَ: أيُّ النَّاسِ أعلَمُ؟ فقالَ: أَنَا أعلَمُ، فَعَتَبَ الله عليهِ إذ لَم يَرُدَّ العلمَ إليهِ، فأوحَى الله إليه: إنَّ عبدًا من عبادي بـ (مجمعِ البحرَينِ) هُوَ أعلمُ مِنكَ. قالَ: يا رَبِّ كَيفَ بِهِ؟ فَقيلَ لَهُ: احمل حُوتًا في مِكتَلٍ، فَإذَا فَقَدتَهُ فَهُوَ ثَمَّ...**». فذكر الحديث في اجتماعه بالخضر إلى أن قال: «**فانطَلَقَا يمشيَانِ علَى ساحلِ البَحرِ، لَيسَ لَهُمَا سَفينةٌ، فمَرَّت بِهِمَا سَفينةٌ، فكَلَّمُوهم أن يحملُوهُمَا، فَعُرِفَ الخضِرُ، فَحَمَلُوهُمَا بِغيرِ نَولٍ**[٢]**، فَجَاءَ عُصفُورٌ فَوقَعَ علَى حَرفِ السَّفينَةِ، فَنَقَرَ نَقرةً أو نقرَتَينِ في البَحرِ، فقَالَ الخَضِرُ: يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ**[٣] **علمِي وعِلمُكَ من علمِ الله إلا كَنَقرةِ هَذَا العُصفورِ في هَذَا البَحرِ...**» فذكر الحديث بطوله. رواه البخاري ومسلمٌ وغيرهما.

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «**فانطَلَقَا يَمشيَانِ**» أي: موسَى والخضر، ولـم يذكر فتى

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٨٦).

(٢) النَّولُ: الأجرُ والجُعْلُ.

(٣) **قال الألباني**: وفي رواية البخاري: «**وما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر**». وهذه الرواية تبين المراد من تلك الرواية، إذ إنَّ علم الله لا يدخله نقص مطلقًا. صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٥٧).

موسى وهو يوشع، لأنَّه تابعٌ غيرُ مقصودٍ بالأصالةِ.

وقوله: «**فكلَّمُوهُم**» ضمَّ يوشعَ معهما في الكلامِ لأهل السفينةِ، لأنَّ المقام يقتضي كلامَ التابعِ.

وقوله: «**فحمَلُوهُمَا**» يُقالُ فيه ما قيل في «**يمشيان**»، ويحتمل أن يكون يوشعُ لـم يركب معهما؛ لأنه لـم يقع له ذكر بعد ذلك». فتح الباري (١/ ٢٦٦).

وأخرج ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده عن مالك بن أنسٍ قال: لا ينبغي لأحدٍ يكون عنده العلمُ أن يتركَ التَّعَلُّمَ.

وعن ابن أبي غسان قال: لا تزالُ عالِمًا ما كنتَ متعلِّمًا، فإذا استغنيتَ كنتَ جاهلاً.

وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** وجدتُ عامَّة علمِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ عند هذا الحيِّ من الأنصارِ، إن كنتُ لأقيلُ ببابِ أحدهم، ولو شئتُ أذِنَ لي، ولكن أبتغي طيبَ نفسِهِ.

وقيل لابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إلى متى تطلبُ العلمَ؟ قال: حتى المماتِ إن شاءَ الله، وقيل له مرَّةً أخرى مثل ذلك، فقال: لعل الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعدُ.

وقال ابن مناذر: سألتُ أبا عمرو بن العلاء: حتى متى يَحسُنُ بالمرءِ أن يتعلَّمَ؟ فقال: مادام تَحسنُ به الحياةُ.

وسُئِلَ سفيانُ بن عُيينَةَ: مَن أحوجُ النَّاسِ إلى طَلَبِ العلمِ؟ قال: أعلمهم؛ لأنَّ الخطأ منه قبيحٌ[١].

وأخرج البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده عن ابن شهابٍ، عن الأعرجِ، عن أبي هريرةَ قالَ: إنَّ النَّاسَ يقولونَ: أكثَرَ أبُو هُريرةَ. ولولا آيتَانِ في كتَابِ الله مَا حدَّثتُ حَديثًا، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٠]. إنَّ إخوانَنَا منَ المهاجِرينَ كَانَ يَشغَلُهُمُ الصَّفقُ

---

(١) جامع بيان العلم (ص١٢٧).

بالأسوَاقِ، وإنَّ إخوانَنَا من الأنصَارِ كَانَ يشغَلُهُمُ العَمَلُ في أموَالِهِم، وإنَّ أبا هُرَيرةَ كَانَ يلزَمُ رسولَ اللهﷺ بشِبَعِ بَطنِهِ، ويَحضُرُ مَا لا يَحضُرونَ، ويَحفَظُ مَا لا يَحفَظُونَ.

قال أبو عمر بن عبد البرّ: «في هذا الحديث من الفقه معانٍ:

منها: أنَّ الحديثَ عن رسول اللهﷺ حكمه حكمُ كتابِ الله المنَزَّلِ.

ومنها: إظهارُ العلمِ ونشرهُ وتعليمهُ.

ومنها: ملازمةُ العلماءِ والرضا باليسيرِ للرغبةِ في الطلبِ.

ومنها: الإيثارُ للعلمِ على الاشتغالِ بالدنيا وكَسبِهَا»[١].

فصاحبُ العلمِ منهومٌ لا يشبعُ، فهو حريصٌ على الزيادةِ أبدًا، ضربة لازبٍ.

وهذا أنسٌ رضي الله عنه يحدِّثُ عن النبيﷺ أنه قال: «**مَنهُومَانِ لا يشبَعَانِ: مَنهُومٌ في العلمِ لا يَشبَعُ منهُ، ومَنهُومٌ في الدُّنيَا لا يَشبَعُ مِنها**». رواه البيهقي في شُعبِ الإيمانِ.

قال الألباني رحمه الله: «حديثُ أنسٍ رواه مَنْ هو أعلى طبقة مِنَ البيهقي وهو شيخه الحاكم، أخرجه في المستدرك (١/ ٩٢) من طريق قتادة عن أنس مرفوعًا، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولـم أجد له علّةً، ووافقه الذهبي».

قلتُ: علتُه أنَّ قتادةَ مُدَلِّسٌ وقد عنعنه، لكنَّ الحديثَ عندي صحيحٌ، فإن له طريقًا أخرى عن حميد عن أنس عند ابن عدي وابن عساكر، وله شاهدٌ من حديث ابن عباس عند أبي خيثمة في العلم (ق١٩٣/ ١) وسنده لا بأس به في الشواهد. (مشكاة المصابيح - ١/ ٨٦).

وأخرج أبو خيثمةَ: ثنا جريرٌ، عن ليثٍ، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس أحسبه رفعه إلى النبيﷺ قال: «**مَنهُومَانِ لا يَقضِي وَاحِدٌ مِنهُمَا نَهمَتَهُ: مَنهُومٌ في طَلَبِ العلمِ لا يَقضي نَهمتَهُ، ومَنهُومٌ في طَلَبِ الدُّنيَا لا يَقْضِي نَهمَتَهُ**».

(١) جامع بيان العلم (ص١٢٨).

قال الألباني: «ليثٌ هو ابن أبي سليم: ضعيفٌ، لكنَّه لـم يتفرد بالحديث، بل له شواهد صحَّح بعضها الحاكمُ والذهبيُّ، وقد تكلمتُ عليها في تعليقنا على المشكاة، وأزيد هنا فأقول: إنَّ الحديثَ رواه الدارمي (١/ ٩٦) من طريق أخرى عن ليثٍ به موقوفًا»[(١)].

وبلغَ محمَّدُ بن الحسنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذِروَةَ الأداءِ في التعبير عن انفعالِ الوجدان بهذه النصوصِ التي مرَّت قريبًا، وهي إزاءَ القلوبِ شاخصةٌ، وفي الأذهانِ ماثلَةٌ، فقال: إنَّ صِناعَتَنَا هذه من المهدِ إلى اللحدِ، فمَن أراد أن يترك عملَنا هذا ساعةً فليتركه الساعة[(٢)].

وكان من شأن علماء سَلَفِ الأمَّةِ أن يرحلوا في طَلَبِ العلمِ؛ فهم يهجرون الأوطانَ، ويفارقُون الأهلَ، ويغادرون الولدَ، للقاء الشيوخِ بحثًا عن المزيد من العلم وتحصيلاً له، حتى إنَّ أحدهم ليرحلُ في طلَبِ الحديثِ الواحِد مع بُعدِ الشُّقَّةِ، ونَصَبِ السَّفَرِ.

وقد مرَّ قبلُ أنَّ عُقبةَ بن عامرٍ ركب إلى مسلمَةَ بن مَخْلدٍ وهو أميرٌ على مصرَ في حديث: «**مَن سَتَرَ عَلَى أخيهِ في الدُّنيَا، سَتَرَ الله عَلَيه في الآخرةِ**»، وأنَّ عُقبَةَ لـم يَحُلَّ رَحلَه حتَّى رجعَ إلَى بيتِهِ.

ومرَّ قولُ الشَّعبيِّ: ما رأيتُ أحدًا من النَّاسِ أطلبَ للعلمِ في أُفقٍ من الآفاقِ من مسروق.

ولم تكن الرحلةُ في طَلَبِ العلمِ شَهوَةَ نفسٍ ولا إرضاءَها، بل هي مع ما فيها من المشقةِ والنَّصَب لها مقصدٌ ومنها غرضٌ.

قال الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المقصودُ في الرحلةِ في الحديثِ أمران: أحدهما: تحصيلُ عُلُوِّ الإسنادِ وقِدَمِ السَّماعِ، والثاني: لقاءُ الحفَّاظِ، والمذاكرةُ لهم، والاستفادةُ منهم.

فإذا كان الأمران موجودَين في بلد الطالبِ، ومعدومَين في غيره، فلا فائدةَ في الرحلةِ، والاقتصارُ على ما في البلدِ أولى.

---

(١) كتاب العلم (ص٣٣).

(٢) تعليم المتعلم (ص٤٤).

وأمَّا إذا كان الأمران اللذان ذكرناهما موجودَين في بلد الطالبِ وفي غيره، إلا أنَّ ما في كلِّ واحدٍ من البلدين يختصُّ به؛ مثل أن يكون الطالبُ عراقيًّا، وفي بلده عالي أسانيد العراقيين، وحفَّاظُ رواياتها، والعلماءُ باختلافها، وليس ذلك في غيره، وبالشام من عُلُوِّ أسانيد الشاميين، ومن أهلِ المعرفةِ بأحاديثهم ما ليس عند غيرهم، فالمستحبُّ للطالبِ الرحلةُ لجمعِ الفائدتين من علو الإسنادين، وعلم الطائفتين، لكن بعد تحصيله حديث بلدهِ وتمَهُّرِهِ في المعرفة به»[1].

وقد كان فيمَن روى البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عنهم قومٌ في عدادِ طلبتهِ في السِّنِّ والإسنادِ، سَمعَ منهم للفائدةِ كعبد الله بن حمَّاد الآملي، وعبد الله بن أبي العاص الخوارزمي، وحسين بن محمد القباني وغيرهم، وقد روى عنهم أشياءَ يسيرةً، وعَمِلَ في الرواية عنهم بما رواه عثمان بن أبي شيبة عن وكيع قال: لا يكون الرجلُ عالِـمًا حتى يحدِّث عمَّن هو فوقه، وعمَّن هو مثله، وعمَّن هو دونه.

وعن البخاري أنَّه قال: لا يكون المحدِّثُ كاملاً حتى يكتب عَمَّن هو فوقه، وعمَّن هو مثله، وعمَّن هو دونه.

وأخرج الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده عن عبد العزيز بن أبي حازمٍ قال: قال أبي: كان النَّاسُ فيما مضى من الزمان الأولِ إذا لقي الرجلُ مَن هو أعلم منه، قال: اليوم يوم غنمي، فيتعلم منه، وإذا لقي مَن هو مثله قال: اليوم يوم مذاكرتي، فيذاكره، وإذا لقي مَن هو دونه علَّمَهُ، ولـم يَزهُ عليه.

قال: حتى صار هذا الزمان، فصار الرجلُ يَعيب مَن فَوقه ابتغاءَ أن ينقطعَ منه حتى لا يرى النَّاسُ أنَّ له إليه حاجةً، وإذا لقي مَن هو مثله لم يُذاكِرهُ، فهلك الناسُ عند ذلك.

وعن عليِّ بن الحسنِ بن شقيقٍ قال: كنتُ مع عبد الله بن المباركِ في المسجد في ليلةٍ شتويةٍ باردةٍ، فقمنا لنخرجَ، فلمَّا كان عند باب المسجد ذَاكَرَني بحديثٍ، أو ذاكرته

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٢٣).

بحديثٍ، فما زال يذاكرني وأذاكره حتى جاء المؤذِّنُ فأذَّنَ لصلاةِ الصبحِ[١].

وإنَّما يمنعُ الرجلَ من العلمِ يستفيده إلى علمه أمران: جنونٌ ألـمَّ به فصوَّرَ له أنَّه حاز العلمَ من أقطارِهِ واستحوذ على جميعِهِ، أو كِبرٌ يذهبُ به مذهبَ الجنونِ الذي سَلَف.

ويحذِّرُ الأئمةُ من ذلك وإليه ينبِّهون، فيقول ابن جماعة -رحمه الله تعالى-: «وليحذر طالبُ العلم من نَظَرِ نفسِهِ بعينِ الكمالِ، والاستغناء عن المشايخِ، فإنَّ ذلك عينُ الجهلِ وقلَّة المعرفةِ، وما يفوته أكثر مما حصَّله، وقد تقدَّم قولُ سعيد بن جبيرٍ: لا يزالُ الرجلُ عالمًا ما تعلَّمَ، فإذا ترك التعلُّمَ وظنَّ أنَّه قد استغنى فهو أجهلُ ما يكون»[٢].

وقال أيضًا: «على العالمِ ألَّا يستنكفَ أن يستفيدَ ما لا يعلمه ممَّن هو دونه منصبًا أو نسبًا أو سِنًّا، بل يكون حريصًا على الفائدةِ حيث كانت، والحكمةُ ضالَّةُ المؤمن يلتقطها حيث وجدها.

قال سعيد بن جبير: لا يزالُ الرجلُ عالِـمًا ما تعلَّم، فإذا ترك التعلُّمَ وظنَّ أنَّه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهلُ ما يكون.

وأنشدَ بعضُ العرب:

وَلَـيسَ العَمَـىٰ طُـولُ الـسُّؤَالِ وإنـمَـا ... تـمامُ العَمَىٰ طُولُ السُّكُوتِ علَىٰ الْجَهلِ

وكان جماعةٌ من السِّلَفِ يستفيدونَ من طَلَبَتِهِم ما ليس عندهم.

قال الحُمَيديُّ وهو تلميذُ الشافعيِّ: صَحبتُ الشافعيَّ من مكةَ إلى مصرَ فكنتُ أستفيدُ منه المسائلَ، وكان يستفيد مني الحديثَ.

قال أحمد بن حنبل: قال لنا الشافعيُّ: أنتم أعلمُ بالحديثِ منِّي، فإذا صحَّ عندكم الحديثُ فقولوا لنا حتى آخذَ به»[٣].

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٧٦).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم (ص١٣٤).

(٣) تذكرة السامع والمتكلم (ص٢٨).

وقد تكلَّم علماءُ الحديث -رحمهم الله- في كتبهم عن لونٍ طريفٍ من ألوان الإسنادِ، هو: روايةُ الأكابرِ عن الأصاغرِ.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «قد يروي الكبيرُ القَدرِ أو السِّنِّ أو هُمَا عَمَّنْ دونَه في كلٍّ منهما أو فيهما.

ومن أجَلِّ ما يُذكر في هذا البابِ ما ذكره رسولُ الله ﷺ في خطبته عن تميم الداري مما أخبره به عن رؤيةِ الدَّجَّال في تلك الجزيرةِ التي في البحر»[١].

وروايةُ النبي ﷺ عن تميم الدَّارِيِّ حديثَ الجسَّاسَةِ ثابتٌ في صحيح مسلم.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «الجسَّاسَةُ هي بفتح الجيم وتشديد السين المهملةِ الأولى، قيل: سُمِّيت بذلك لتجسُّسها الأخبارَ للدَّجَّالِ، وجاءَ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنَّها دابَّةُ الأرضِ المذكورةُ في القرآن»[٢].

والحديثُ في صحيح مسلمٍ من روايةِ فاطمة بنت قَيسٍ، وكانت تقضي عِدَّتَها في بيت ابن عمِّها عبد الله بن عمرو ابن أُمِّ مكتومٍ بأمرِ النبي ﷺ، قالت: فلما انقضت عدَّتِي سَمِعتُ نِدَاءَ المنادي مُنَادي رسُولِ الله ﷺ يُنَادِي: الصَّلاةَ جَامِعَةً، فخرجتُ إلى المسجدِ فصلَّيتُ مع رسول الله ﷺ فكنتُ في صَفِّ النِّسَاءِ التي تَلِي ظُهُورَ القومِ، فلَمَّا قضَى رسولُ الله ﷺ صَلاَتُه جَلَسَ علَى المنبَرِ وهُو يَضحَكُ، فقال: «**لِيَلزَمْ كُلُّ إنسَانٍ مُصَلاَّهُ**، ثُمَّ قالَ: **أَتَدرُونَ لـم جمعتُكم**؟ قالوا: الله ورسولُهُ أعلمُ، قالَ: **إنِّي واللهِ ما جمعتُكم لِرغبَةٍ ولا لِرهبَةٍ، ولكن جمعتُكم لأنَّ تميمًا الدَّاريَّ كَانَ رجُلاً نَصرَانيًّا فَجَاءَ فبَايَعَ وأسلَمَ، وحدَّثَني حَديثًا وافَقَ الذِي كنتُ أحدِّثُكُم عَن مَسيحِ الدَّجَّالِ، حدَّثَني أنَّه رَكِبَ في سفينَةٍ بَحريَّةٍ...**» الحديث.

---

(١) الباعث الحثيث (١٩٥).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ٧٨).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا معدودٌ في مناقبِ تميم؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ روى عنه هذه القصة، وفيه روايةُ الفاضلِ عن المفضولِ، وروايةُ المتبوعِ عن تابعِهِ، وفيه قبولُ خبرِ الواحدِ»[١].

وقد روى الصحابةُ عن التابعين.

قال ابنُ الصَّلاحِ: وقد روى العبَادِلَةُ[٢] عن كعب الأحبَارِ.

قالَ السَّيوطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذلك روايةُ التابعيِّ عن تابعيه، كالزهري والأنصاري عن مالك، وكعمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص، وليس تابعيًّا، روى عنه منهم، أي: من التابعين أكثرُ من عشرين نَفسًا»[٣].

وفي هذا المعنى أيضًا ما أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبيُّ ﷺ لأبي بن كعبٍ: «**إنَّ الله أمَرَني أن أقرأَ عليكَ**: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ...﴾ [البينة:١]. قَالَ أُبَيٌّ: وسَمَّانِي؟ قَالَ: **نَعَم**، فَبَكَى».

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُؤخذُ من هذا الحديث مشروعيَّةُ التواضعِ في أخذِ العلمِ من أهله وإن كانوا دونه، وقال أبو عبيد: ليسَ المرادُ بالعَرضِ على أُبيٍّ أن يستذكرَ منه النبيُّ ﷺ شيئًا بذلك العَرضِ، بل المرادُ بالعَرضِ على أُبيٍّ أن يتعلَّمَ أُبَيٌّ منه القراءَةَ ويتثبَّتَ فيها»[٤].

وقال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا الحكمةُ في أمرِهِ بالقراءةِ على أُبَيٍّ، فقال المازري والقاضي: هي أن يتعلَّمَ أُبَيٌّ ألفاظَهُ، وصيغةَ أدائِهِ، ومواضعَ الوقوف، وصُنعَ النَّغَمِ في نغماتِ القرآنِ على أسلوب أَلِفَهُ الشرعُ وقدَّره، بخلافِ ما سواه من النَّغَمِ المستعمَلِ في غيره، ولكلٍّ ضربٌ من النَّغَمِ مخصوصٌ في النفوسِ، فكانت القراءةُ عليه ليتعلَّمَ منه.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ٨١).

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر: يعني: عبد الله بن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص.

(٣) تدريب الراوي (٢/ ٢٤٥).

(٤) فتح الباري (٧/ ١٥٩).

وقيل: قرأَ عليه لِيسُنَّ عَرضَ القرآنِ على حفَّاظِهِ البارعين فيه، المجيدين لأدائِه، وليَسُنَّ التواضعَ في أخذِ الإنسانِ القرآنَ وغيره من العلومِ الشرعيةِ من أهلها، وإن كانوا دونه في النَّسَبِ والدين والفضيلةِ والمرتبةِ والشهرةِ، وغير ذلك، وليُنَبِّه النَّاسَ على فضيلةِ أُبَيٍّ في ذلك، ويحثهم على الأخذِ منه، وكان ذلك، فكان بعد النبيِّ ﷺ رأسًا وإمامًا مقصودًا في ذلك مشهورًا به»[1].

فهذه الآثارُ التي سُقْتُ إليك، وأقبلتُ بها عليك؛ من حديث موسى عليه السلام مع الخضِرِ، ومن ملازمةِ أبي هريرةَ رضي الله عنه للنبيِّ ﷺ، يحفظُ ما لا يحفظُ الأصحابُ ويشهدُ ما لا يشهدون، ومن نصِّ النبيِّ ﷺ على أن طالبَ العلمِ منهومٌ لا يشبع، ومن رحيل عُقْبَةَ ابن عامرٍ إلى مسلمَةَ بن مخلدٍ في حديثٍ واحدٍ، وعودتِهِ دون أن يَحُلَّ رَحْلَه، ومن مُذاكرةِ أئمَّةِ الحديثِ من السَّلَفِ بعضهم بعضًا ليلاً طويلاً حتى يبرقَ الفجرُ، ومن روايةِ النبيِّ ﷺ عن تميمٍ، وقراءته على أُبيٍّ، كلُّ ذلك يقضي بأنَّ على الطالبِ والعالِـمِ أن يظلَّا في طلبٍ أبدًا، وما يدريك، لعلَّ الكلمة التي تنفعُكَ لم تقع إليك بَعْدُ!!

❋ ❋ ❋

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٢١).

٩- وعلى طالبِ العلمِ أن يُعنى عنايةً تامَّةً بالحفظِ والاستظهارِ:

لقد بَعَثَ الله محمدًا ﷺ للنّاسِ كافَّةً مُبَشِّرًا ونذيرًا، ورحمةً للعالمين، وأنزل عليه الكتاب بالحقِّ، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

وكان من حكمة الله تعالى أن بعثَ النبيَّ الخاتمَ أُمِّيًّا لا يقرأُ ولا يكتبُ؛ حتى لا يرتابَ المبطلون في الذي جاء به من عند ربه، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

وكانت الأمَّةُ التي بُعِثَ فيها النبيُّ ﷺ وخاطبها خطابًا مباشرًا منه إليها بالوحي الذي جاءَ به، كانت هذه الأمَّةُ أمِّيةً لا تقرأُ ولا تكتب، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢]. لذلك ميَّزَ الله هذه الأمَّةَ بأن جعلَ أناجيلَها في صدورِها، فهي أمَّةٌ حافظةٌ.

ورغَّبَ النبيُّ ﷺ الأمَّةَ في الحفظِ فقال في خطبةِ الودَاع: «**فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ**»[١].

ودعا النبيُّ ﷺ لِمَن سَمِعَ مقالتَهُ وحديثَه فحفظه فبلَّغه كما سمعه، دَعَا لَهُ بالنضارةِ، وهي النِّعمَةُ والبهجةُ.

فعن جُبَيرِ بن مُطعمٍ قَالَ: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ بالخَيفِ -خَيفِ مِنًى- يقولُ: «**نَضَّرَ الله عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتي فَحَفِظَهَا ووَعَاهَا، وبَلَّغَهَا مَن لَم يَسمَعْهَا؛ فَرُبَّ حَامِلِ فِقهٍ لا فِقهَ له، ورُبَّ حَامِلِ فقهٍ إِلَى مَن هُوَ أفقَهُ مِنهُ، ثَلاثٌ لا يُغِلُّ عَلَيهِنَّ قَلبُ مؤمِنٍ: إخلاَصُ العَمَلِ لله، والنَّصِيحَةُ لأئمةِ المسلِمِينَ، ولزومُ جَمَاعَتِهِم، فإِنَّ دَعوَتَهُم تَحُوطُ مَن وَرَاءَهُم**».

رواه أحمد، وابن ماجه، والطبرانيُّ في (الكبير) مختصرًا ومطولاً، وله عند أحمد طريقٌ عن صالح بن كيسان عن الزهري، وإسناد هذه حسنٌ، كذا قال المنذري، وكذلك حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

قال الزمخشريُّ -عفا الله عنه-: «نَضَره، ونَضَّره، وأَنضَره: نَعَّمَهُ فَنَضَرَ يَنْضُرُ ونَضُرَ يَنْضُرُ»(١).

وقال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: «**نَضَّرَ الله امرأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا**». نضَره ونَضَّره وأنضَره: أي: نَعَّمَه.

ويُروى بالتخفيفِ والتشديدِ من النَّضَارَةِ، وهي في الأصل: حُسن الوجْهِ، والبَرِيقُ، وإنَّما أراد حَسَّنَ خُلُقَه وقَدرَه»(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ النبيَّ ﷺ دعا لِمَن سمعَ كلامَه ووعاه وبلَّغَهُ بالنَّضرَةِ، وهي البهجةُ ونضارةُ الوجه وتحسينهُ.

والنَّضرة: هي البهجةُ والحسنُ الذي يُكساه الوجهُ من آثار الإيمانِ وابتهاجِ الباطنِ به، وفرحِ القلبِ وسرورهِ والتذاذهِ به، فتظهر هذه البهجة وهذا السرورُ والفرحةُ نضارةً على الوجهِ، ولهذا يجمعُ له سبحانه بين البهجة والسرور والنضرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١]. فالنضرةُ في وجوههم، والسرورُ في قلوبهم، فالنعيمُ وطِيبُ القلبِ يظهرُ نضارةً في الوجهِ، كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين:٢٤].

والمقصودُ: أنَّ هذه النضرةَ في وجهِ مَن سَمِعَ سُنَّةَ رسولِ الله ﷺ ووعاها وحفظها وبلَّغها، فهي أَثَرُ تلك الحلاوةِ والبهجةِ والسرورِ الذي في قلبِهِ وباطنِهِ»(٣).

وكان العلماءُ من سَلَفِ هذه الأُمَّةِ في الحفظِ بمقامٍ عالٍ، لا يدانيهم فيه أحدٌ من علماء الأمم السالفةِ، فحفظوا على الأُمَّةِ حديثَ نبيِّها وسنَّتَه، ونقلوا للذين خَلَفُوهم من بَعدِهم كنوزَ علمٍ موفورةً وافيةً، وحضُّوا مَن بَعدَهُم على الحفظِ، فأدَّوا أمانةَ العلمِ حَقَّ

(١) الفائق (٣/ ٤٣٩).

(٢) النهاية (٥/ ٧١).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٧١).

أدائها؛ إذ هي ميراث النبيﷺ، ما وَرَّثَ درهمًا ولا دينارًا، وإنَّما وَرَّثَ العلمَ؛ فمَن أخذَ به أخَذَ بحظٍّ وافرٍ.

ومما يدلُّ على منزلةِ الحفظِ ما حدَثَ للشيخِ أبي حامدٍ رَحِمَهُ اللهُ، فقد سافرَ إلى جُرجَانَ وقرأَ على كثيرٍ من علمائها وهو صغيرٌ، فكان يكتبُ تعليقاتِ أستاذِه في الفقهِ، والفوائدَ التي أخذها منه وجَمَعَها في كراريسَ سمَّاها: (التعليقة)، وقد كان يريد الاكتفاءَ بالكتابةِ دون الحفظِ، غير أنَّ هذَا الإهمالَ لقَّنه درسًا قاسيًا حيث قُطع عليه الطريقُ وهو في طريقِ عودته إلى طوس، وأخذ قُطَّاع الطرقِ جميعَ ما كان مع القافلةِ بما فيه المخلاة، أي: حقيبة الغزَالي التي كان فيها تعليقته[1].

وقد حكى الغزَاليُّ هذه الحادثةَ فقال: فتبعتُهم، فالتفتَ إليَّ كبيرهُم وقال: ويحَكَ، ارجع وإلا هلكتَ، فقلتُ: أسألك بالذي ترجو السلامةَ منه أن تردَّ عليَّ تعليقتي فقط، فما هي بشيءٍ تنتفعون به.

فقال لي: وما هي تعليقتُك؟

فقلتُ: كتبٌ في تلك المخلاةِ هاجرتُ لسماعِها وكتابتها ومعرفة علمها.

فضحكَ، وقال: كيف تدَّعي أنَّكَ عرفتَ علمها وقد أخذناها منك فتجرَّدتَ من معرفتها وبقيتَ بلا علمٍ؟ ثمَّ أمر بعضَ أصحابه فسلَّم إليَّ المخلاَة.

قال: فقلتُ: هذا مستنطَقٌ أنطقه الله ليرشدني به أمري، فلمَّا وافيتُ طوسَ أقبلتُ على الاشتغالِ ثلاثَ سنينَ حتى حفظتُ جميع ما علَّقته، وصرتُ بحيث لو قُطعَ عليَّ الطريقُ لم أتجرَّد من علمي[2].

فعلى طالبِ العلم أن يحفظَ العلومَ، فإنَّ الحفظَ ولاسيَّما في الصِّغَرِ كالنَّقشِ في الحجَرِ.

---

(١) آداب المتعلم والعالـم (ص١٤).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٦/ ١٩٥).

وأخرجَ الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده عن عبد الرزاق قال: كلُّ عِلمٍ لا يدخلُ مع صاحبه الحمَّامَ فلا تعدَّه عِلمًا.

قال الطَّحَّانُ في تعليقه: «المرادُ بقولِ عبد الرزاق هذا: أنَّ العلمَ الذي لا يهتمُّ به صاحبُهُ، ويكونُ معه، ويردِّده على ذهنِهِ حتى وقت الاغتسالِ في الحمَّامِ، فليس بعلمٍ نافعٍ؛ لأنَّ كَتْبَهُ في الكُتبِ، وخَزنَه من غير قراءتِه وحفظِهِ والعنايةِ به ليس فيه فائدة»[1].

قلتُ: وقولُ الطَّحَّانِ: «ويردِّده على ذهنِهِ حتى وقت الاغتسال في الحمَّام». قولٌ غريبٌ**!!** ومقصدُ عبد الرزَّاقِ رَحِمَهُ اللَّهُ ألطفُ مَسْلَكًا، وأشَفُّ بيانًا من هذا، وإنَّما أرادَ أن يقول: إنَّ العلمَ هو ما وعته الذاكرةُ فاستغنت به عن الكتبِ والأسفارِ، وأصبحت رموزهُ منقوشةً على لوحِ الذَّاكِرَةِ، ومحفورةً على صفحةِ القلبِ، كما قال الشافعيُّ في هذا المعنى رَحِمَهُ اللَّهُ:

عِلمِـي مَعِـي حَيـثُمَا كُـنْتُ يَتْبَعُنــي ... صَـدرِي وِعَـاءٌ لَـهُ لا بَطـنُ صـندوقِ

إذَا كُنْتُ فِي البَيتِ كَانَ العِلمُ فيه مَعِي ... أَو كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ العلمُ فِي السُّوقِ

وأخرج الخطيبُ عن هبة الله بن عبد الواحد أنَّ هذين البيتين لبشَّارٍ، وعلى كلِّ حالٍ فمعناهما أقربُ ما يكون اتصالاً بقولِ عبد الرزاقِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأخرج الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إنَّما يحفظُ الرَّجُلُ على قَدرِ نيَّتِهِ.

وقال الخطيبُ: «ينبغي أن يكونَ قصدُ الطالبِ بالحفظِ ابتغاءَ وجهِ الله تعالى، والنصيحةَ للمسلمين في الإيضاح والتبيين، وليجتنب ارتكابَ المحرَّماتِ ومواقعةَ الأمورِ المحظوراتِ.

فعن يحيى بن يحيى قال: سألَ رجلٌ مالكَ بن أنس: يا أبا عبد الله، هل يصلح لهذا الحفظِ شيءٌ؟ قال: إن كان يصلُحُ له شيءٌ فتركُ المعاصي.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٥٠).

وعن القاسم بن عبد الرحمن قال: قال عبد الله: إنِّي لأحسَبُ الرَّجُلَ يَنسى العلمَ بالخطيئة يعملُها»[١].

وقال الزَّرنوجيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأقوى أسبابِ الحفظِ: الجِدُّ والمواظبةُ، وتقليلُ الغذاءِ، وصلاةُ الليلِ، وقراءةُ القرآنِ من أسبابِ الحفظِ.

وأمَّا ما يورثُ النسيانَ فالمعاصي وكثرةُ الذنوب والهمومُ والأحزانُ وكثرة الأشغالِ والعلائقِ»[٢].

فانقطاعُ الطالبِ إلى الله وافتقارهُ إليه وإنابتهُ، وتوكُّلُه عليه، أسبابٌ موصِّلاتٌ إلى الحفظ والفهمِ، ولك في الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ مَثَلٌ أيُّ مَثَلٍ.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعتُ أبا زُرعةَ يقول: كان أبوك يحفظُ ألفَ ألف حديثٍ، فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرتُه فأخذتُ عليه الأبوابَ.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: قال سعيد بن عمرو البرذعي: يا أبا زرعةَ أنت أحفظُ أم أحمد بن حنبل؟ قال: بل أحمد، قلتُ: وكيف علمتَ؟ قال: وجدتُ كُتُبَهُ ليس في أوائلِ الأجزاءِ أسماءُ المحدِّثين الذين سمعَ منهم، فكان يحفظُ كلَّ جُزءٍ ممَّن سمعه، وأنا لا أقدر على هذا.

وعن أبي زُرعة قال: حُزِرَت كتبُ أحمد يوم مات فبلغت اثني عشر حِملاً وعِدلاً، ما كان على ظهرِ كتابٍ منها: (حديثُ فلان) ولا في بطنِهِ: (حدَّثنا فلانٌ)، وكلُّ ذلك كان يحفظُ على ظهرِ قلبه.

وقال الحسنُ بن منبهٍ: سمعتُ أبا زُرعَة قال: أخرج إليَّ أبو عبد الله أجزاءَ كلُّها (سفيان) ليس على حديثٍ منها حدَّثَنا فلانٌ، فظننتُها عن رَجُلٍ واحدٍ، فانتخبتُ منها، فلمَّا قرأ عليَّ جعلَ يقولُ: حدثَّنَا وكيعٌ ويحيى حدَّثَنا فلانٌ، فعجبتُ من ذلك وجهدتُ

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٥٧).

(٢) تعليم المتعلم (ص٥٤).

أن أقدرَ على شيءٍ من هذا فلم أقدِر.

وقال عبد الله: قال لي أبي: خذ أيَّ كتابٍ شئتَ من كتب وكيعٍ، فإن شئتَ أن تسألني عن الكلام حتى أخبركَ الإسنادَ، وإن شئتَ بالإسنادِ حتى أخبرَك عن الكلامِ(١).

ومذاكرةُ العلمِ أقوى الأسبابِ إعانةً على حفظِهِ، ومَن قصَّر في الدرسِ بعد التحصيلِ والجمعِ فقد أضاعَ ما عنده.

قال الخليل بن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: كُن على مُدَارَسَةِ ما في صدركِ أحرصَ منك على مُدَارَسَةِ ما في كتبِكَ.

وقال الرياشيُّ: سمعتُ الأصمعيَّ وقيل له: كيف حفظتَ ونسي أصحابُك؟ قال: درستُ وتركوا.

وعن عَونِ بن عبد الله بن عتبة قال: أتينا أُمَّ الدَّردَاءِ، فتحدَّثنا عندها، فقلنا: أمللناكِ يا أمَّ الدرداءِ. فقالت: ما أمللتموني، لقد طلبت العبادةَ في كلِّ شيءٍ فما وجدتُ شيئًا أشفى لنفسي من مُذاكَرَةِ العلمِ، أو قالت: من مذاكرةِ الفقهِ.

وقال ابن أبي ليلى: إنَّ إحياءَ الحديثِ مذاكرتُه. فقال عبد الله بن شدَّاد: يرحمك الله، كم من حديثٍ أحييته في صدري، قد كان مات(٢).

وكَثْرَةُ النَّظَرِ أبلغُ شيءٍ في الحفظِ وأنفعُهُ، بذلك وصَّى الشيوخُ وعليه حَضُّوا، يقول أحمد بن الفرات: لـم نَزَل نسمعُ شُيوخَنَا يذكرون أشياءَ في الحفظِ، فأجمعوا أنَّه ليس شيءٌ أبلغ فيه إلا كثرةُ النَّظَرِ، وحفظُ الليلِ غالبٌ على حفظِ النَّهار.

وعن عبد الرزاقِ رَحِمَهُ اللَّهُ **قال:** كان سفيانُ الثوري عندنا ليلةً، قال: وسمعتُ قرأ القرآنَ من الليلِ وهو نائمٌ، ثمَّ قام يصلي، فقضى جزأه من الصلاةِ، ثمَّ قعدَ، فجعلَ يقول: الأعمش، والأعمش، والأعمش، ومنصور، ومنصور ومنصور، ومغيرة، ومغيرة، ومغيرة.

(١) ترجمة الإمام أحمد للذهبي (ص٩).

(٢) جامع بيان العلم (ص١٣٥).

قالَ: فقلتُ له: يا أبا عبد الله، ما هذا؟ قال: هذا جُزئي من الصلاة، وهذا جُزئي من الحديث.

وعن جعفر المراغي قال: دخلتُ مقبرةً بتُسْتَرَ، فسمعتُ صائحًا يصيح: والأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة، والأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، ساعةً طويلةً، فكنتُ أطلبُ الصوتَ إلى أن رأيتُ ابن زهير وهو يَدرُسُ مع نفسهِ من حفظِهِ حديثَ الأعمش[١].

فالأمرُ -إذن- جِدٌّ لا هَزلَ فيه، سَهَرٌ ونَصَبٌ وسَغَبٌ، قيل لبعضهم: بِمَ أدركتَ العلمَ؟ قال: بالمصباحِ والجلوسِ إلى الصباحِ، وقيل لآخر، فقال: بالسفر والسَّهَرِ والبُكُورِ في السَّحَرِ.

واعلم أنَّ للحفظِ ساعاتٍ ينبغي لمن أراد التَّحَفُّظَ أن يراعيها، وللحفظِ أماكن ينبغي للمتحفِّظِ أن يلزمها، فأجودُ الأوقات الأسحارُ، ثمَّ بعدها وقت انتصاف النهار، وبعدها الغَدَواتُ دون العَشِيَّاتِ، وحفظُ الليل أصلحُ من حفظِ النَّهارِ[٢].

وللعلماءِ عنايةٌ بالغةٌ بالحفظِ والأسبابِ المعينةِ عليه، والحالاتِ الدافعةِ إليه، وما يؤثِّرُ فيه قوةً وضعفًا؛ من الأزمنة والأماكنِ والمطاعمِ وحالات النفسِ وما يعرضُ لها.

يقول الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأجودُ أوقاتِ الحفظِ الأسحارُ، ثمَّ بعدها وقتُ انتصافِ النَّهارِ، وبعدها الغَدَوَاتُ دون العشِيَّات، وحفظُ الليلِ أصلحُ من حفظِ النَّهَارِ.

وأجود أماكنِ الحفظِ الغُرَفُ دون السفلِ، وكلُّ موضعٍ بعيدٍ ممَّا يلهي وخلا القلبُ فيه ممَّا يفزعه فيشغله، أو يغلب عليه فيمنعه، وليس بالمحمودِ أن يتحفَّظَ الرجلُ بحضرةِ النباتِ والخضرةِ، ولا على شطوطِ الأنهار ولا على قوارعِ الطُّرُقِ؛ فليس يعدِمُ في هذه المواضِع غالبًا ما يمنع من خلوِّ القلبِ، وصفاء الذهنِ.

وأوقاتُ الجوعِ أحمدُ للتحفُّظِ من أوقاتِ الشِّبَعِ، وينبغي للمتحفِّظِ أن يتفقد من نفسه حالَ الجوعِ، فإنَّ بعضَ النَّاسِ إذا أصابه شدَّةُ الجوعِ والتهابُهُ لـم يحفظ، فليطفئ ذلك عن نفسه بالشيء الخفيف اليسيرِ.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٦٥).

(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ١٠٣).

وقال الأصمعيُّ: وَعَظَ أعرابيٌّ أخًا له فقال: يا أخي، إنَّك طالِبٌ ومطلوبٌ، فبادرِ الموتَ، واحذر الفوتَ، وخذ من الدنيا ما يكفيك، ودع منها ما يطغيك، وإيَّاك والبِطنَةَ فإنَّها تعمي عن الفطْنَةِ»(١).

واعلم أنَّ الحفظَ مِنَّةٌ من الله ﷻ يهبها مَن يشاءُ ويجعلها فيمَن أراد، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فعلى طالبِ العلمِ أن يكون دائمَ الفَزَعِ لربِّه سائلاً إياه أن يَهَبَهُ هذه المِنَّةَ وأن يجودَ عليه بهذه النِّعمَةِ، وأن يجعله من الواعين الحافظين.

وقد أنعمَ الله على الإمامِ المقَدَّمِ الحافظِ العَلَمِ، الإمامِ محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ اللهُ بذاكرةٍ لاقطةٍ، وقلبٍ حافظٍ، وأذنٍ واعيةٍ.

يروي الحافظُ ابن حجر بإسناده عن أحمد بن عدي الحافظِ قال: سمعتُ عدَّةً من مشايخِ بغداد يقولون: إنَّ محمد بن إسماعيل البخاريَّ قَدِمَ بغداد، فسمعَ به أصحابُ الحديث، فاجتمعوا وأرادوا امتحانَ حفظِهِ، فعمدوا إلى مئة حديثٍ فقلبوا متونَها وأسانيدها، وجعلوا متنَ هذا الإسنادِ لإسناد آخر، وإسنادَ هذا المتنِ لمتن آخر، ودفعوها إلى عشرةِ أنفسٍ، لكلِّ رجلٍ عشرة أحاديثَ، وأمروهم إذا حضروا المجلسَ أن يُلقوا ذلك على البخاري، وأخذوا عليه الموعدَ للمجلسِ، فحضروا وحضر جماعةٌ من الغرباءِ من أهل خُراسان وغيرهم ومن البغداديين، فلما اطمأنَّ المجلسُ بأهلِهِ انتدب رجلٌ من العشرةِ فسأله عن حديثٍ من تلك الأحاديث، فقال البخاري: لا أعرفه، فما زال يلقي عليه واحدًا بعد واحدٍ حتى فرغَ، والبخاريُّ يقول: لا أعرفه، وكان العلماءُ ممَّن حضر المجلسَ يلتفتُ بعضهم إلى بعضٍ ويقولون: فهم الرجلُ، ومَن كان لم يَدرِ القصةَ قضى على البخاري بالعجزِ والتقصيرِ وقلَّةِ الحفظِ.

ثمَّ انتدَب رجلٌ من العشرة أيضًا فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال: لا أعرفه، فسأله عن آخر، فقال: لا أعرفه، فلم يزل يلقي عليه واحدًا واحدًا

---

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ١٠٤).

حتى فرغ من عشَرَتِهِ، والبخاري يقول: لا أعرفه.

ثمَّ انتدب الثالثُ والرابعُ إلى تمام العشَرَةِ، حتى فرغوا كلُّهم من إلقاءِ تلك الأحاديث المقلوبةِ، والبخاري لا يزيدهم على: لا أعرفه، فلمَّا عرف أنهم قد فرغوا التفتَ إلى الأولِ فقال: أما حديثُك الأولُ، فقلتَ كذا وصوابه كذا، وحديثُك الثاني كذا وصوابه كذا، والثالثُ والرابعُ على الولاء حتى أتى على تمامِ العشَرَةِ فردَّ كلَّ متنٍ إلى إسنادِهِ وكل إسنادٍ إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك، فأقرَّ النَّاسُ له بالحفظِ وأذعنوا له بالفضلِ.

قال الحافظُ ابنُ حجر: «قلتُ: هنا يُخضعُ للبخاري، فما العجبُ من ردِّه الخطأ إلى الصوابِ فإنه كان حافظًا، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيبِ ما ألقَوهُ عليه من مرَّةٍ واحدة».

وقال أبو الأزهر: كان بسمرقند أربع مئة محدِّثٍ فتجمَّعوا وأحبُّوا أن يغالطوا محمد بن إسماعيل البخاري، فأدخلوا إسنادَ الشامِ في إسنادِ العراقِ، وإسنادَ العراقِ في إسنادِ الشام، وإسنادَ الحَرَمِ في إسنادِ اليمنِ، فما استطاعوا مع ذلك أن يتعلَّقوا عليه بسقطَةٍ»(١).

وقد حكى عنه رفاقُهُ في الطَّلَبِ في حِدَّةِ الذهنِ وسيلانِه عجبًا؛ حَدَّثَ حاشدُ بن إسماعيل قال: «كان البخاريُّ يختلفُ معنا إلى مشايخِ البصرةِ وهو غلامٌ فلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيامٌ فلمناه بعد ستة عشر يومًا، فقال: قد أكثرتم عليَّ، فاعرضوا عليَّ ما كتبتم فأخرجناه فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلَّها عن ظهر قلبٍ، حتى جعلنا نُحكِمُ كتبَنَا من حفظِهِ»(٢).

ولَـمَّا كان النَّاسُ متفاوتين في مِنَّةِ الحفظِ على درجاتٍ كثيرةٍ؛ فمنهم مَن يحفظُ سَمَاعًا، ومنهم مَن يحتاج إلى تكرير درسه مِرَارًا حتى يحفظه، لَمَّا كان ذلك كذلك كانت القاعدةُ أن يأخذَ المرءُ نفسهَ بتكريرِ محفوظه حتى لا ينساه.

---

(١) هدي الساري (ص٥١٠).

(٢) هدي الساري (ص٥٠٢).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الطريقُ في إحكامِ المحفوظِ كثرةُ الإعادةِ، والنَّاسُ يتفاوتون في ذلك: فمنهم مَن يثبتُ معه المحفوظُ مع قلَّةِ التكرارِ.

ومنهم مَن لا يحفظُ إلا بعد التكرارِ الكثيرِ؛ فينبغي للإنسانِ أن يعيدَ بعد الحفظِ، ليثبتَ معه المحفوظُ.

وكان أبو إسحاق الشيرازي يعيد الدرسَ مئةَ مَرَّةٍ، وكان إِلكِيَا الهرَّاسي يعيد سبعين مرةً، وقال لنا الحسن بن أبي بكر النيسابوري الفقيه: لا يحصل الحفظُ حتى يعادَ خمسين مرة.

وحكى لنا الحسنُ أنَّ فقيهًا أعادَ الدرسَ في بيته مرارًا كثيرةً، فقالت له عجوزٌ في بيته: قَد والله حفظتُه أنا. فقال: أعيديه، فأعادته، فلمَّا كان بعد أيام، قال: يا عجوز أعيدي ذلك الدَّرْسَ، فقالت: ما أحفظه، قال: أنا أكرِّر لئلاَّ يصيبني ما أصابك»[١].

فينبغي لطالِبِ العلمِ أن يعتني بدرسِهِ، فيقوم بتحضيره ومراجعته، ثُمَّ فهمِهِ بنفسِهِ أو بواسطَةِ شيخهِ، ويعتني بتصحيحِ درسه الذي يحفظه تصحيحًا متقنًا على الشيخِ، ثُمَّ يحفظه حفظًا مُحكمًا.

ثُمَّ بعد الحفظِ لا يتركه بل يردِّده دائمًا حتى يترسَّخَ تَرسُّخًا مؤكَّدًا، ويداوم على تكريرِ محفوظاتِهِ.

ولا يحفظُ من الكتبِ استقلالاً، بل يصحِّحُ على الشيخِ، فالاستقلالُ بذلك من أضرِّ المفاسد، وإلى هذا أشار الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: مَن تَفَقَّهَ مِنَ الكُتُبِ ضَيَّعَ الأحكَامَ، فأَهم شيءٍ في الحفظِ الفهمُ التَّامُّ، وحفظُ الكلمات بعد نطقها سليمًا من حيث النحوُ والصرفُ.

ثُمَّ فليذاكر بمحفوظاته، وليعمِّق الفكرَ فيها، وليهتم بالفوائدِ التي يحصلُ عليها من شيخهِ، وليرافق بعضَ حاضري الدرس ليتذاكروا معًا.

قال الخطيبُ البغداديُّ: وأفضلُ المذاكرةِ مذاكرة الليلِ، وكان جماعةٌ من السلفِ يفعلون ذلك، وكان جماعةٌ منهم يبدءون من العشَاءِ فربَّما لَـم يقوموا حتى يسمعوا أذان الصبحِ.

(١) الحث على حفظ العلم (ص٣٥).

يقول الإمامُ الشافعيُّ:

سَــهَري لِتَنقِـيحِ العُلُــومِ أَلَــذُّ لِـي ... مِــن وَصْـلِ غَانِـيةٍ وَطـيِبِ عِـنَاقِ

وصَــرِير أَقَلامِــي عَلَــىٰ صَــفْحَاتِهَا ... أَحلَــىٰ مِــنَ الــدَّوْكَاءِ والعُــشَّاقِ(١)

وَأَلَــذُّ مِــن نَقْــرِ الفَــتَاةِ لِــدُفِّهَا ... نَقْـرِي لأُلقِـي الـرَّمْلَ عَـن أَوراقِـي

وتَمَايُلِــي طَــرَبًا لِحَــلِّ عَوِيــصَةٍ ... فِـي الـدَّرسِ أَشْـهَىٰ مِـن مُدَامَـةِ سَاقِ

وأَبِــيتُ سَــهْرانَ الدُّجَــىٰ وتبيــتهُ ... نَــوْمًا وتَبْغِــي بَعْــدَ ذَاك لِحَاقِــي

وينبغي للطالب أن يبدأ في دروسِهِ وحفظِهِ ومذاكرَتِه بالأهمِّ فالمهمِّ، فأول ما يبتدئ به القرآن العظيم، وكان علماؤنا لا يعلِّمون الحديثَ والفقهَ إلا لمن حفظَ القرآنَ، فإذا حفظه فليحذر من الاشتغالِ عنه بالحديثِ والفقهِ وغيرهما اشتغالاً يؤدي إلى نسيانِ شيءٍ منه(٢).

وقد أرشد النبيُّ ﷺ إلى تعاهِد المحفوظِ، ونَبَّهَ على ذهاب المحفوظِ بإهمالِهِ ذهابًا ماحقًا، كما تذهبُ الإبلُ التي لا يتعاهدها شَذَرَ مَذَرَ، فقال ﷺ فيما أخرجه الشيخان من حديث أبي موسى رضي الله عنه: «**تَعَاهَدُوا هَذَا القُرآنَ، فوالَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإبلِ في عُقُلِهَا**».

وأخرج الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّما مَثَلُ صَاحبِ القُرآنِ كَمَثَلِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ، إن عاهَدَ عليَها أمسَكهَا، وإِن أطلقَهَا ذَهَبت**».

وأخرجَ الشيخان أيضًا عن عبدِ الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**استَذكِرُوا القُرآنَ، فلَهُو أَشَدُّ تَفَصِّيًا من صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ بِعُقُلِهَا**». هذه رواية مسلم.

(١) **الدَّوكَاءُ**: الحَجَرُ الذي يسحق به الطِّيبُ، المراد بالدوكاء والعشاق هنا: مقامات من المقامات الغنائية العراقية (آداب المتعلم والعالـم ص٥٥).

(٢) آداب المتعلم والعالم (ص٥٤).

ورواية البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَعَاهَدُوا القُرآنَ، فوالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإبلِ في عُقُلِهَا**». وهذا لفظ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله ﷺ: «**إنمَّا مَثَلُ صَاحِبِ القُرآنِ كَمَثَلِ الإبلِ المُعَقَّلَةِ...**» إلى آخره، فيه الحثُّ على تعاهُدِ القرآنِ وتلاوتِه والحذرِ من تعريضه للنسيانِ، ومعنى «**صاحبِ القرآن**»، قال القاضي: أي: الذي أَلِفَهُ، والمصاحبةُ: المؤالفةُ، ومنه فلانٌ صاحبُ فلانٍ، وأصحابُ الجنَّةِ، وأصحابُ النَّارِ، وأصحابُ الحديثِ، وأصحابُ الرأيِ، وأصحابُ الصُّفَّةِ، وأصحابُ إبلٍ وغنمٍ، وصاحبُ كَنزٍ، وصاحبُ عبادةٍ.

وقوله: «**استذكِرُوا القُرآنَ، فلَهُو أَشَدُّ تفَصِّيًا من صُدُورِ الرِّجَال مِنَ النَّعَم بعُقُلِهَا**».

قال أهلُ اللغة: التفصِّي: الانفصال، وهو بمعنى الرواية الأخرى: «**أشد تفلُّتًا**»، والنَّعَمُ أصلها الإبلُ والبقرُ والغنمُ، والمرادُ هنا: الإبِلُ خاصةً لأنَّها التي تُعقَلُ»[(١)].

وقال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «**إنَّما مثَلُ صَاحِبِ القُرآنِ**»؛ أي: مع القرآنِ، والمرادُ بالصاحبِ: الذي أَلِفَهُ.

وقال عياض: المؤالفةُ: المصاحبةُ، وهو كقوله: أصحابُ الجنَّةِ، وقوله: أَلِفَه، أي: أَلِفَ تلاوتَه، وهو أعمُّ من أن يألفها نظرًا من المصحَف أو عن ظهرِ قلبٍ، فإنَّ الذي يداوم على ذلك يذلُّ له لسانهُ ويسهل عليه قراءتهُ، فإذا هجره ثقلت عليه القراءةُ وشقَّت عليه.

وقوله: «**كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبلِ المُعَقَّلَةِ**» أي: مع الإبلِ المعقَّلَةِ، والمعقَّلةُ -بضمِّ الميم وفتح العين المهملة وتشديد القاف-: أي المشدودة بالعقَالِ، وهو الحبلُ الذي يُشدُّ في ركبةِ البعيرِ؛ شبَّه درسَ القرآنِ واستمرار تلاوته بربط البعير الذي يُخشى منه الشِّرادُ، فما زال التعاهد موجودًا فالحفظ موجود، كما أنَّ البعير مادام مشدودًا بالعقالِ فهو محفوظٌ، وخصَّ الإبلَ بالذِّكر لأنَّها أشدُّ الحيوانِ الإنسيِّ نفورًا، وفي تحصيلها بعد استمكان نفورها صعوبةٌ.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٧٧).

وقوله: «لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا منَ الإبلِ في عُقُلِهَا»؛ لأنَّ من شأنِ الإبلِ تطلبُ التفلُّت ما أمكنها، فمتى لم يتعاهدها برباطها تفلَّتت، فكذلك حافظُ القرآن إن لم يتعاهده تفلَّتَ بل هو أشدُّ في ذلك»[(١)].

وعلى طالبِ العلمِ بعد حفظِ القرآنِ أن يبدأ بمبادئِ اللغة فيحفظ من كلِّ فنٍّ مختصرًا.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويبدأ بالأهمِّ، ومن أهمها الفقهُ والنحوُ والأصولُ والحديثُ، ثمَّ الباقي على ما تيسرَّ، ثمَّ يشتغل باستشراحِ محفوظاتِه ويعتمد من الشيوخِ في كلِّ فنٍّ أكملَهم»[(٢)].

واعلم -وفَّقَك الله وسدَّدك- أنَّ طريقَ علمائنا -رحمهم الله- في العلم أوَّله الإخلاصِ وتصحيح النيَّةِ، وقد مرَّ قولُ عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يَحفَظُ الرَّجُلُ علَى قَدرِ نِيَّتِهِ» ومَرَّ كيف أحكموا الوثَاقَ بين الذنوب وذهاب العلم ونسيانِهِ، بل كانوا يعتبرون في العلمِ زكاةً كزكاةِ المالِ تُؤدَّى وتُخرَجُ، وكانوا يأخذونَ النصوصَ مأخذَ الجِدِّ لا هزلَ فيهِ، ولا تسويفَ معهُ، حتى ليقول قائلهم -هو إسماعيل بن مجمع-: كنَّا نستعين على حفظِ الحديثِ بالعملِ به.

فأصلُ الأمرِ توفيقُ الله لك، فافزع إليه وكن ذا هِمَّةٍ، وأغفل أمرَ الزمنِ.

لا يُؤيِسَنَّكَ مِن مَجدٍ تَباعُدُهُ ... فَإِنَّ للمَجدِ تَدريجًا وتَرتِيبَا

إنَّ القَنَاةَ[(٣)] التي شَاهَدتَ رِفْعَتَها ... تَسْمُو فَتَنْبُتُ أُنْبُوبًا فَأُنْبُوبَا

وقديمًا قيل:

إنِّي رَأَيتُ وَفِي الأيَّامِ تَجرِبَةٌ ... للصَّبْرِ عَاقِبَةً مَحمُودَةَ الأثَرِ

وَقَلَّ مَن جَدَّ فِي أَمرٍ يُطَالِبُهُ ... واستَصحَبَ الصَّبْرَ إلا فَازَ بالظَّفَرِ

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦٩٧).

(٢) آداب المتعلم والعالم (ص٥٥).

(٣) **القناةُ**: القصبةُ الجوفاء، وكلُّ خشبةٍ عند العرب قناةٌ وعصًا. لسان العرب (ص٣٧٦١).

١٠- مراعاةُ آدابِ الاستفادةِ والتحصيل:

بُعِثَ النبيُّ ﷺ على حين فترةٍ من الرُّسُلِ، في أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ، فطريةِ الطباعِ، حادَّةِ المزَاجِ، فطريَّةِ الهوى، تتأبَّى على القيادِ، وتأنفُ من الانقيادِ، ولا تعرفُ في أساليبِ الاجتماعِ سياسةً ولا نظامًا.

بُعِثَ النبيُّ ﷺ في هذه الأمَّةِ فخرجت من الظلماتِ إلى النُّورِ، ومن أساليب فوضى تشملُ الحياةَ في كلِّ مناحيها، إلى جادَّةِ نظامٍ تُسلكُ في سلكِهِ أمورُ الحياةِ ظاهرُهَا وخافيها.

واستجابَ الله تعالى لإبراهيمِ دعوته التي دعا من قبلُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

وامتنَّ الله على هذه الأمَّةِ ببعث محمد ﷺ منها فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، قال ابن عباس: الأميُّون: العربُ كلُّهم؛ مَن كتب منهم ومَن لم يكتب؛ لأنَّهم لم يكونوا أهل كتاب. وقيل: الأميُّون: الذين لا يكتبون، وكذلك كانت قريش. ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، يعني: محمدًا ﷺ، وما من حيٍّ من العربِ إلا ولرسولِ الله ﷺ فيهم قرابةٌ وقد ولدوه.

قال ابن إسحاق: إلا حيَّ تَغلب؛ فإن الله تعالى طَهَّرَ نبيَّه ﷺ منهم لنصرانيَّتهم، فلم يجعل لهم عليه ولادةً.

وكان أمِّيًّا لم يقرأ من كتاب ولم يتعلَّم ﷺ.

قال الماورديُّ: فإن قيلَ: ما وجه الامتنان بأن بعثَ نبيًّا أمِّيًّا؟ فالجوابُ عنه من ثلاثةِ وجوهٍ:

أحدها: لموافقته ما تقدَّمت به بشارةُ الأنبياء.

الثاني: لمشاكلة حاله لأحوالهم؛ فيكون أقرب إلى موافقتهم.

الثالثُ: لينتفي عنه سوءُ الظَّنِّ في تعليمه ما دعا إليه من الكتب التي قرأها والحِكَمِ التي تلاها.

قلتُ: وهذا كلُّه دليلُ معجزتِهِ وصدق نبوَّتِهِ.

قوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني: القرآن، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يجعلهم أزكياءَ القلوبِ بالإيمانِ، قاله ابن عباس، وقيل: يطهِّرهم من دَنَسِ الكفرِ والذنوبِ؛ قاله ابن جريجٍ ومقاتل. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: القرآن، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾، السُّنَّةَ، قاله الحسن، وقال ابن عباس: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الخط بالقلم؛ لأنَّ الخطّ فَشَا في العربِ بالشرعِ لما أُمِروا بتقييده بالخطِّ، وقال مالك بن أنس: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾، الفقه في الدين، ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبله ومن قبلِ أن يُرسَلَ إليهم، ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في ذهاب عن الحقِّ»[١].

والمقصدُ: أنَّ الله تعالى أرسلَ محمَّدًا ﷺ بالعلمِ والحكمة؛ يعلِّمُ العالَمَ كلَّه كيف ينبغي أن تكون الحياةُ الحقَّةُ، فلم يدع خيرًا يُقَرِّبُ من رضا الله تعالى ويباعدُ من سَخَطِهِ إلا دَلَّ عليه وأرشَدَ إليه، ولم يدع شرًّا يباعدُ من رضا الله تعالى ويُقَرِّبُ من سَخَطِهِ إلا زَجَرَ عنه وحَذَّرَ منه، وتبعه مَن شرحَ الله للحقِّ والهدى صدرَهُ حتى نصرَ الله رسولَه ﷺ، وأظهرَ دينه، وأعزَّ جندَه، فكانت أُمَّتُهُ، خيرَ أمَّةٍ أخرجت للناسِ، منهجُهم أعدلُ منهجٍ، وطريقُهم أقومُ طريقٍ، وفهومُهم خيرُ الفهوم، ومخالفُهم شرُّ النَّاسِ أجمعينَ.

وسارت الأمَّةُ في طريقها المستقيم بإذنِ ربِّها، وخَلَفَ من بعد سلفها الأولِ خَلَفٌ صالحٌ حملَ أمانةَ العلمِ وأدَّاها موفورةً مباركةً وقعَّد القواعدَ وأصَّلَ الأصولَ، وجمعَ الأشباه إلى أشباهِهَا، وضمَّ النظائرَ إلى نظائرها، فكانت تَرِكَةً مباركة.

وظلَّ الحالُ على الخيرِ، حتى خَلَفَ هذا الخَلَفَ الصَالِحَ خَلْفٌ[٢] أضاعوا الأمانةَ،

---

(١) تفسير القرطبي (ص٦٥٧١).

(٢) الخَلَفُ في الصَّلاحِ، والخَلْفُ في الطَّلاحِ.

وانفتحت أعينُهم على غير تراثِ أجدادِهم فانسلخوا من ماضي أمَّتهم، وارتَدَوا للنَّاسِ مُسُوحًا لا يعرفها النَّاسُ ولـم يألفوها، وادَّعُوا العلمَ وموَّهوا، ولَبَّسُوا على النَّاسِ أمورَهم وفتنوهم، فنشأت في الأمَّةِ أجيالٌ لا ترى في تراثِها شيئًا يسرُّ، بل لا ترى في تراثها إلا ما يضرُّ، واعتقدوا اعتقاد الدينِ أنَّ الخيرَ في الذي حازه غيرهم وإن كان لأصولِ الدينِ ناقضًا، وأنَّ الشرَّ في اتباعِ أسلافنا وإن كانوا كالنجومِ يُهتدى بها في ظلماتِ البرِّ والبحرِ، وما هي إلا فتنةٌ، والله المستعانُ وعليه التكلانُ وإليه المشتكى.

وكان ممَّا اهتمَّ علماءُ الأمَّةِ ﷺ به قواعد التعليمِ وأصول التربية، فكانوا فيها مُقْتَفِينَ لآثارِ مَن سبقوهم، لا يبتدعون من عند أنفسهم قواعدَ، ولا يخترعون لتلاميذهم أصولاً، وكان التلاميذُ نجباءَ بحقٍّ فكانوا بعد ذلك أئمةً فحولاً.

وأصولُ التربيةِ وقواعدُ التعليمِ عند علمائنا -غفر الله لهم- هي خير ما يمكن الأخذُ به في بعثِ الأمَّةِ لو كانوا يعلمون، ولكنَّ القرونَ التي نشأت من بعدُ تطاول عليهمُ العُمُرُ فانهزمت منهم الأرواحُ فباتوا لا يفقهون.

ولكن، ما لي أخذتُ بك في طريقٍ غير الذي كنَّا نسير فيه من البداية؟ وهل تظنُّ حقًّا أننا نسيرُ الآن في غير ذلك الطريقِ؟ أنا لا أظنُّ ذلك، بل أعتقد ضِدَّه، وأعتقد أنَّكَ كذلك.

لكنَّ حرفَ المسألةِ يدور حولَ انهزامنا أمامَ تلك الثقافاتِ الفارغةِ الجوفاءِ العقيمةِ، التي أفرزتها عقولُ قومٍ تنضحُ بالحقدِ أفكارُهم، وتستشري فيما يقدمونه لنا سمومُهم.

أظنُّك الآن تحسبني جامدًا لا أفهمُ!! صُلْبًا لا ألينُ! بل إنِّي عليك مُشفِقٌ؛ لأنَّ ما خُطِّطَ لك آتى أُكُلَهُ البغيضَ وأثمرَ ثمارَهُ المُرَّةَ...

وما الذي خُطِّط لك؟ خُطِّطَ لك أن تخرجَ من أصلِ انتسابك إلى أمَّتِكَ العربيةِ المسلمةِ في ظاهرها وباطنها، وأن تخجلَ من نسبتك إلى تراثِ أجدادِك، وأن تصفَ بالضعفِ والجمودِ كلَّ مَن دعاك إليه وحَضَّك عليه.

وأنتَ، ألستَ كذلك؟! أنا لا أظنُّ أنَّك كذلك، لا أظنُّ، ولكن، كيف أنتَ في حقيقةِ الأمر؟! هذا أمرٌ تعلمه أنت...

ما علينا، لنَعُد إلى ما كُنَّا فيه فنقول بحول الله وقوَّتِه: إنَّ على طَالبِ العلمِ أن يراعي آدابَ الاستفادَةِ والتحصيلِ ومنها:

أن يميِّزَ الطالبُ في نفسهِ تمييزًا واضِحًا فَرقَ ما بينه وبين شيخهِ، وأن يُوقنَ بأنَّه من حيثُ هو طالبٌ في مقامِ الطالبِ لا يتعدَّاه، وأن شيخه من حيثُ هو شيخهُ في مقامِ الأستاذِ لا ينزلُ عنه.

ذلك لأنَّ اختلاطَ الحدودِ في هذا الأمرِ لا يأتي منه خيرٌ، وإسقاط الكُلْفَةِ بين الشيخِ وبين مَن يتعلَّمون منه مدعاةٌ لعدمِ استفادتهم منه شيئًا.

وقد أمر الله المؤمنين بالتزامِ هذا الأدبِ مع مربِّيهم وقائدهمﷺ فقال تعالى: ﴿ **لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا** ﴾ [النور:٦٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الضَّحَّاكُ عن ابن عباسٍ: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك إعظامًا لنبيِّهﷺ، فقال: قولوا: يا نبي الله، يا رسولَ الله، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير. وقال قتادة: أمر الله أن يُهابَ نبيُّهﷺ، وأن يُبجَّلَ، وأن يُعَظَّمَ، وأن يُسَوَّدَ.

وقال مقاتلٌ في قوله: ﴿ **لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا** ﴾، يقول: لا تُسَمُّوه إذا دعوتموه يا محمد، ولا تقولوا: يا بن عبد الله، ولكن شَرِّفُوه، فقولوا: يا نبيَّ الله، يا رسولَ الله.

وقال مالكٌ عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿ **لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا** ﴾، قال: أمرهم الله أن يُشَرِّفُوه، هذا قولٌ، وهو الظاهرُ من السياق»[١].

وفرقٌ بين أن يتواضعَ الشيخُ لتلميذه، وأن يتخطَّى التلميذ حدودَ وقارٍ تلزمه ولا تنفكُّ

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٦).

عنه، وقد كان الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يحبُّ الربيعَ بن سليمان، حتى إن الربيعَ قال: دخلتُ على الشافعي -وهو مريضٌ-، فقلت له: قَوَّى الله ضَعْفَكَ.

قال: لَو قَوَّى ضَعْفِي: قتلني.

فقلتُ: والله؛ ما أردتُ إلا الخيرَ.

قال: أعلمُ أنَّك لو شتمتني، لم تُرِد إلا الخير.

ويحكي أبو يعلى عن الشافعيِّ: أنَّه علَّمه فقال: قل: قَوَّى الله قُوَّتَكَ، وضَعَّفَ ضَعْفَكَ[١].

ومع هذا الإقبالِ من الشافعيِّ على الربيعِ، ومع هذه المحبَّةِ له، فإنَّ الربيعَ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: والله ما اجترأتُ أن أشربَ الماءَ والشافعيّ ينظرُ إليَّ هيبةً له[٢].

وما في كلِّ حينٍ يجدُ الطالبُ إذا أعرضَ عن أستاذِهِ أستاذًا يشفقُ عليه ولا يُغفلُ شأنَه كما وجد أبو يوسف من رِفقِ أبي حنيفةَ وحُنُوِّهِ؛ فإنَّه لما مَرِضَ أبو يوسفَ مرضًا أشفق عليه أبو حنيفةَ منه، كان يتعهَّده حينًا بعد حينٍ، وسار إليه آخرَ مرَّةٍ فرآه مُقبلاً بعد أن أبلَّ فرجع ثمَّ قال: «كنتُ أُؤمِّلك للمسلمين، ولئن أُصيبَ النَّاسُ بك ليمُوتَنَّ معك علمٌ كثيرٌ». ارتفعت نفسُ أبي يوسف وعقد لنفسِهِ حلقةً خاصةً وقعد عن مجلسِ أبي حنيفة، وقصد إليه النَّاسُ يتحلَّقون حوله، وافتقده الشيخُ فعلمَ جملةَ الخبرِ.

ولم يتخلَّ الأستاذُ عن تلميذِهِ، ودعا إليه صديقًا سيَّره إليه يحملُ الرسالةَ الآتيةَ:

اذهب فقل ليعقوب -هو أبو يوسف-: ما تقول في رجلٍ دفعَ إلى قصَّارٍ ثوبًا ليقصِّره بدرهمٍ ، فصار إليه بعد أيامٍ يطلبُ الثوبَ فأنكره.

ثُمَّ إنَّ صاحبَ الثوبِ عادَ بعد أيامٍ يطلبُ الثوبَ ثانيةً، فردَّه إليه مقصورًا فهل له أجر؟ فإن قال: له أجرٌ، فقل: أخطأتَ، وإن قال: لا أجرَ له، فقل: أخطأت.

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (ص٢٧٤).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم (ص٨٨).

وكان يعقوبُ في صباه يعملُ عند قصَّارٍ[١] صبيًّا -وكان أبوه على ما قيل خيَّاطًا- ولعلَّ هذا سرُّ اختيارِ السؤال، فإذا عجزَ الأستاذُ الحدَثُ عن الجوابِ في مسألةٍ له بها من كلِّ ناحيةٍ عهدٌ، فتعسًا للعلمِ الذي يدعيه.

ومشى الرسولُ يَحُثُّ الخُطَا إلى الأستاذِ النجيبِ، وأخذَ الأستاذ يجيبُ، قال: له أجرٌ. قال: أخطأتَ، فأطرق مَليًّا ثم قالَ: لا أُجرَةَ له، قالَ: أخطأتَ، وعُمِّيَت الأنباءُ على الفتى فأَبلس[٢]، أي: تحيَّر، وأسرَّ الندامةَ لَمَّا رأى الخطأ، وانطلقَ من مجلسِهِ انطلاقَ السهمِ إلى الرميَّةِ إلى حيث ملاذهُ وأستاذُه.

قال أبو حنيفة: أظنُّ ما جاءَ بك إلا مسألةُ القصَّارِ.

قال أبو يوسف: بلى.

قال أبو حنيفة: سبحانَ الله! مَن قعد يفتي، وقعد مجلسًا يتكلَّم في دينِ الله وهذا قَدرُهُ، لا يُحسن أن يجيبَ مسألةً من مسائل الإجارات؟!

قال أبو يوسف: يا أبا حنيفة علِّمني.

قال أبو حنيفة: إن كان قَصَّرَهُ بعدما غَصَبَه فلا أُجرَةَ له؛ لأنَّه قَصَّره لنفسه، وإن كان قصَّره قبل أن يغصبَه فله الأجرة لأنَّه قصره لصاحبِهِ.

ثُمَّ قال أبو حنيفة: مَن ظنَّ أنَّه يستغني عن العلمِ فليبكِ على نفسِهِ[٣].

ومن آداب الاستفادَة والتحصيلِ أن يهتمَّ الطالبُ بتسجيلِ الفوائدِ التي تَعِنُّ له، وذلك بأن يصاحبَه دائمًا قلمٌ ودفترٌ؛ ليكتبَ كلَّ فائدةٍ يسمعها أو يستنبطها هو من خِلالِ درسهِ واستذكارِه، فقد قيل: العلمَ صيدٌ والكتابةُ قيدٌ.

وقد بوَّبَ البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ في صحيحه: بابَ كِتَابَةِ العلمِ.

---

(١) **القصَّارُ**: هو المُبَيِّضُ للثيابِ.

(٢) انكسر وحزن أو أَيِسَ.

(٣) أبو حنيفة: بطل الحرية والتسامح في الإسلام (ص١١٤).

وقال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: «طريقة البخاريِّ في الأحكامِ التي يقع فيها الاختلاف ألا يجزمَ فيها بشيءٍ بل يوردها على الاحتمالِ، وهذه الترجمةُ من ذلك، لأنَّ السَّلفَ اختلفوا في ذلك عملاً وتركًا، وإن كان الأمرُ استقرَّ والإجماعُ انعقدَ على جوازِ كتابةِ العلمِ، بل على استحبابِهِ، بل لا يبعد وجوبُه على مَن خشيَ النسيانَ ممَّن يتعيَّن عليه تبليغُ العلمِ»[1].

وفي البابِ عن أبي جُحَيْفَةَ قالَ: قُلتُ لعَليٍّ: هَل عِندَكُم كِتَابٌ؟ قالَ: لا، إلا كِتابُ الله، أَو فَهمٌ أُعطيهُ رجُلٌ مُسلِمٌ، أو مَا في هذهِ الصَّحيفَة قَالَ: قُلتُ: فَمَا في هذِهِ الصَّحيفةِ؟ قالَ: العقلُ، وفكَاكُ الأسيرِ، ولا يُقْتَل مُسلمٌ بِكَافرٍ.

قال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: «**الصحيفةُ**: أي: الورقةُ المكتوبةُ، العَقْلُ: الدِّيَةُ، وإنَّما سُمِّيت به لأنَّهم كانوا يعطون فيها الإبلَ ويربطونها بفناءِ دارِ المقتولِ بالعقالِ وهو الحبلُ، (وفكَاكِ الأسيرِ)، بكسرِ الفاءِ وفتحها، وقال الفرَّاءُ: الفتحُ أفصحُ، والمعنى: أنَّ فيها حكمَ تخليصِ الأسيرِ من يدِ العدوِّ والترغيبَ في ذلك»[2].

وفي البابِ أيضًا عن أبي هريرةَ رضي الله عنه: أنَّ خُزَاعَةَ قَتلوُا رَجُلاً مِن بَني لَيثٍ عامَ فَتح مَكَّةَ بقتيلٍ منهُم قَتَلُوهُ، فأخبرَ بِذَلكَ النبيُّ ﷺ فَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ فخَطَبَ، وذَكَرَ خطبة النبيﷺ ثُمَّ قَالَ: فَجَاء رَجُلٌ من أهل اليَمَنِ فقالَ: اكتُب لي يَا رَسُولَ الله، فقالَ: «**اكتُبوا لأبي فُلانَ**».

وقال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: «إن هذا الرجل هو أبو شاهٍ، بهاء مُنَوَّنَةٍ، وقد ورد اسمه في روايةٍ في اللُّقَطَةِ من الصحيح».

وأيضًا أخرجَ البخاريُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مَا مِن أصحَابِ النبيِّ ﷺ أحدٌ أَكثَرَ حَديثًا عنهُ مِنِّي، إلا مَا كَانَ مِن عبدِ الله بن عمرو فإنَّهُ كَانَ يَكتُبُ ولاَ أَكتُبُ.

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللهُ: «يُستفادُ من هذا الحديث ومن حديث عليٍّ رضي الله عنه، ومن قصَّةِ أبي شاهٍ أنَّ النبيِّ ﷺ أذِنَ في كتابةِ الحديثِ عنه، وهو يعارض حديثَ أبي سعيدٍ الخدري أن

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٤٦).

(٢) فتح الباري (١/ ٢٤٧).

رسول الله ﷺ قال: «**لا تَكْتُبُوا عَنِّي شيئًا غير القرآنِ**».

والجمعُ بينهما: أنَّ النهيَ خاصٌّ بوقتِ نزولِ القرآنِ خشيةَ التباسِهِ بغيره، والإذنَ في غير ذلك، أو أنَّ النهيَ خاصٌّ بكتابةِ غيرِ القرآنِ مع القرآنِ في شيءٍ واحدٍ والإذنَ في تفريقهما، أو النهي متقدِّمٌ والإذن ناسخٌ له عند الأمنِ من الالتباس وهو أقربُها مع أنَّه لا ينافيها.

وقيل: النهيُ خاصٌّ بمن خُشي منه الاتكال على الكتابةِ دون الحفظِ، والإذن لمن أمن منه ذلك، ومنهم مَن أعَلَّ حديثَ أبي سعيد، وقال: الصوابُ وقفه على أبي سعيد، قاله البخاريُّ وغيره.

قال العلماءُ: كره جماعةٌ من الصحابة والتابعين كتابةَ الحديثِ، واستحبُّوا أن يؤخذَ عنهم حفظًا كما أخذوا حفظًا، لكن لما قصرت الهممُ وخشي الأئمةُ ضياعَ العلم دوَّنوه، وأولُ مَن دَوَّنَ الحديثَ ابن شهاب الزهري على رأسِ المئةِ بأمرِ عمر بن عبد العزيز، ثمَّ كثُر التدوينُ ثمَّ التصنيفُ وحصل بذلك خيرٌ كثيرٌ، فلله الحمدُ»[1].

وقال الشاعرُ وقد أحسن:

لا يُـــدرِكُ العِلـــمَ إلا كُـــلُّ مُـــشتَغل بـــالعلمِ هِمَّـــتُهُ القِـــرطَاسُ والقَلَـــمُ

وذكر ابن عبد البرِّ في (الجامعِ) الرُّخصَةَ في كتابةِ العلمِ فسَاقَ بسندِه: عن مَعنٍ قال: «أخرج إليَّ عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتابًا وحلفَ لي أنه خطُّ أبيه بيده.

وعن خالد بن خداش البغداديِّ قال: ودَّعتُ مالك بن أنسٍ فقلتُ: يا أبا عبد الله، أوصِني، فقالَ: عليك بتقوى الله في السرِّ والعلانيةِ، والنصحِ لكلِّ مسلمٍ، وكتابة العلمِ من عند أهلِهِ.

وعن سوادةَ بن حيانَ قال: سمعتُ معاويةَ بن قُرَّةَ يقول: مَن لـم يكتب العلمَ فلا تَعدُّوه عالـمًا»[2].

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٥١).

(٢) جامع بيان العلم (ص٩٢).

وكان ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قد بوَّبَ بابًا في (جامع بيان العلم)، وسَمَهُ بقوله: ذِكرُ كراهيةِ كتابةِ العلمِ وتخليدِه في الصُّحُفِ، وساق بأسانيده أقوالَ السلفِ في كراهية كتابةِ العلمِ حتى إذا فَرَغَ من ذلك قال: «مَن ذكرنا قوله في هذا البابِ فإنَّما ذهب في ذلك مذهبَ العربِ، لأنَّهم كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك، والذين كرهوا الكتابَ كابن عباس والشعبي وابن شهاب والنخعي وقتادة ومَن ذهب مذهبهم وجُبِلَ جِبِلَّهم، كانوا قد طُبعوا على الحفظِ، فكان أحدهم يجتزي بالسَّمْعَةِ، وهذا مشهورٌ أنَّ العربَ قد خُصَّت بالحفظِ، وقد رخَّص رسولُ الله ﷺ في كتابِ العلمِ، ورخَّص فيه[1] جماعةٌ من العلماءِ وحمدوا ذلك»[2].

وخلاصةُ القولِ: أنَّه ينبغي لطالبِ العلمِ أن يجتهد في كتابةِ الفوائدِ التي يسمعُها أو تَعْرِضُ له، فإنَّ في ذلك تثبيتًا لمحفوظِهِ، وحفظًا لعلمِهِ، وإنَّه:

إذَا لَـم يَكُـن عَـونٌ مِـنَ الله للفَتَـىٰ ... فَـأوَّلُ مَـا يَجْنِـي عَلَـيه اجـتهَادُهُ

ومن آدابِ الاستفادَةِ والتحصيلِ: أن يتَّخذَ طالبُ العلمِ صاحبًا جادًّا يعينه على شأنِهِ إذا أقبل عليه، ويذكِّره به إن أدبَر عنه، وفي المقابِل عليه أن يجتنبَ الصديقَ السَّيِّئَ أو الكسلانَ.

أخرج البخاريُّ عن عمرَ رضي الله عنه قال: كُنتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الأنصَارِ من بَنِي أُمَيَّةَ بن زَيدٍ -وهِيَ مِن عَوَالِي المدينَةِ- وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، يَنزِلُ يومًا وَأَنزِلُ يَومًا، فَإِذَا نَزَلتُ جِئتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ اليَومِ مِنَ الوَحيِ وغَيرِهِ، وإذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ.

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: (وجارٌ لي) هذا الجارُ هو عِتبان بن مالك أفاده ابن القسطلاني، لكن لـم يذكر دليله.

(١) لست أدري لماذا ذكر أبو عمر رَحِمَهُ اللَّهُ ترخيص العلماء بعد أن ذكر ترخيص النبي ﷺ فالموافقُ يستمدُّ من كلام النبي ﷺ، والمخالف لا يُعتدُّ برأيه.

(٢) جامع بيان العلم (ص٨٨).

قوله: (في بني أمية): أي: ناحية بني أمية، سمِّيت البقعة باسمِ مَن نزلها»[١].

وقد أسلفنا القولَ -بحولِ الله وقوَّتِه- عن تركِ العِشْرَةِ مَا أمكنَ، واتخاذِ الصاحبِ والرفيق، في (آداب طالبِ العلم) فلا حاجةَ إلى العودةِ بالإطالة بذكره هنا، والله المستعان.

ومن آداب الاستفادةِ والتحصيل: التفرُّغُ الكاملُ للعلمِ وتركُ الهمومِ، إذ الهمومُ من الأمراضِ الفتَّاكةِ القاتلةِ لذكاءِ الإنسانِ وفطنته.

وقد قال الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تشاور مَن ليس في بيته دقيقٌ فإنَّه مُولَهُ العقل.

ومن آداب الاستفادَةِ والتحصيلِ: النشاطُ في مراجعةِ الدروسِ، والإقبالُ عليها، فقد كان أبو يوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُنَاظِرُ الفقهاءَ وهو جائعٌ خمسةَ أيامٍ وكان الإمام إِلكيَا الهَرَّاسيُّ يراجعُ درسَه تسعين مرةً.

❊ ❊ ❊

(١) فتح الباري (١/ ٢٢٣).

وبعدُ:

فهذه سبيل علمائنا في طَلَبِ العلمِ، وهذه طرائقهم في تلقِّيه ودرسِهِ، ولن تعدِمَ أن تجدَ اليومَ بين الذين يعملون للدين ولا نشكُّ في نيَّاتهم طَرْفَةَ عينٍ، ولا في حُسنِ بلائهم وبذلهم وجهادهم، لن تعدِمَ أن تجدَ من هؤلاء مَن يصف هذه السبيلَ وهذه الطرائقَ بأنَّها عتيقةٌ حينًا، وبأنَّها غير مجديةٍ أحيانًا وبأنَّها لا تلائم عامَّة المثقَّفين وجمهورَ المتعلِّمين في أكثرِ الأحايين.

ولستُ أدري، كيف يعملُ الرجلُ للدينِ ويبذلُ جهدَه ومالَه وعمره له، ثُمَّ لا يجتهد بادئ ذي بَدءٍ أن يكون همُّه إيجادَ مقوِّماتِ الأمَّةِ في الأمَّةِ؟ لست أدري!!

إنَّ هذه الأمَّةَ أُمَّةٌ مرحومةٌ، وهي كالغيثِ لا يُدرى أَوَّله خيرٌ أم آخره، وهذه الأمةُ أمةٌ متمَيِّزةٌ في لباسِها وهيئتِها، وفهمِها وحركتِها، وفي ظاهرِها وجوهرِها، فمَن أرادَ أن يعملَ للدين فهذا هو الطريق.

قال الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تقرَّر في الشرعِ أنَّه لا يجوز -للمسلمين رجالاً ونساءً- التشبُّه بالكفار سواء في عباداتهم أو أعيادِهم أو أزيائهم الخاصة بهم، وهذه قاعدةٌ عظيمةٌ في الشريعة الإسلامية خرج عنها اليوم مع الأسف كثيرٌ من المسلمين، حتى الذين يعنون منهم بأمورِ الدين والدعوةِ إليه، جهلاً بدينهم، أو تبعًا لأهوائهم، أو انجرافًا مع عادات العصرِ الحاضرِ وتقاليدِ أوربا الكافرة، حتى كان ذلك من أسباب ذلِّ المسلمين وضعفهم وسيطرة الأجانبِ عليهم واستعمارهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]. لو كانوا يعلمون».

وينبغي أن يُعلمَ أنَّ الأدلَّةَ على صحةِ هذه القاعدةِ المهمَّةِ كثيرةٌ في الكتاب والسنة، وإن كانت أدلَّةُ الكتابِ مجملةً فالسنَّةُ تفسرِّها وتبيِّنُها كما هو شأنها دائمًا[١].

(١) جلباب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة (ص١٦١).

وذكر الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ أدلَّةَ الكتابِ والسُّنَّةِ الصحيحةِ، صافيةً وافيةً على صحَّةِ القاعدةِ التي ذكرها، فمَن أرادَ أن ينظرها فليراجعها في كتاب «**جلباب المرأة المسلمة**» للشيخ الألباني، فإنَّ نقلَها هاهنا ليس ممَّا نحن بصدده، فلتراجع هناك، ولنأخذ فيما كُنَّا فيه.

ومن عَجَبٍ أنَّ غيرنا يفهمُ هذا الفهمَ على وجهِهِ ويعملُ له؛ يعملُ له بأن يصرفنا نحن عن ماضينا وتراثنا وأصولِ ثقافتنا الصحيحة، بل ويحقِّرُ ذلك كلَّه عندنا بما يعرضه علينا من زخرف باطلٍ وزينةٍ فارغةٍ، ويعملُ له بأن يعمِّقَ كُلٌّ في أُمَّتِهِ انتماءَها وارتباطها بماضيها.

وإليك أسوقُ المثَلَ:

ألـم تَرَ كيف تُباهي كلُّ أمَّةٍ في أوربا بلغتِها، وكيف يفخر الفرنسيون بلسانهم حتى إنهم ليجعلونه أولَ ما يعقدون عليه الخنصرَ إذا عدُّوا مفاخرهم ومآثرهم، وهل أعجبُ من أنَّ المجمعَ العلميَّ الفرنسيَّ يؤذِّنُ في قومِهِ بإبطالِ كلمةٍ إنجليزيةٍ كانت في الألسنةِ من أثرِ الحربِ الكبرى ويوجب إسقاطها من اللغةِ جملةً، وهي كلمة (نظام الحصر البحري)، وكانت ممَّا جاءت مع نكبات فرنسا في الحربِ العظمى، فلمَّا ذهبت تِلكَ النكبَاتِ رأى المجمعُ العلميُّ أنَّ الكلمةَ وحدها نكبةٌ على اللغةِ كأنَّها جنديٌّ دولةٍ أجنبيَّةٍ في أرضِ دولةٍ مستقلَّةٍ بشارَته وسلاحِه وعَلَمِه يُعلنُ عن قهرٍ أو غَلَبَةٍ أو استعبادٍ.

وهل فعلوا ذلك إلا أنَّ التهاونَ يدعو بعضُه إلى بعضٍ، وأنَّ الغفلةَ تبعثُ على ضعفِ الحفظِ والتصوُّنِ، وأنَّ الاختلاطَ والاضطرابَ يجيء من الغفلةِ، والفساد يجتمع مع الاختلاطِ والاضطراب؟»[1].

أَلَا إنَّ ما عندنا لا يملكه إلا نحن، وإنَّ ما عند غيرنا يمكن لنا أن نملكه، فإنَّ ديننَا لا يملك أحدٌ عُشْرَ معشارِه، بل لا وجه للمقارنةِ بين ديننا ودينِ غيرنا بحال.

(١) تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي (ص٢٥).

ودنيا غيرنا لو أنَّنا أخذنا بأسباب ديننا واجتهدنا في تحصيلها فلن تستعصي علينا إن شاء الله.

بل إنَّ هذه المدنيَّةَ الصاخبةَ العربيدَ الماجنةَ التي تُصَدِّرُ إلينا مفاسدَها ومباذلها في كلِّ حينٍ، هذه المدنيَّةُ مدنيَّةُ أقوامٍ ما تحضَّروا إلا على أيدينا ومن سبيلنا، فما بالنا اليوم نَحْقِرُ ما قام عليه بناءُ الذين يفتنون أعينَ ضعفائِنا بزخرِفهم، ويستميلون جهَّالَنا بباطِلِهم؟!

ولقد ذكرتُ لك قبلُ بعضًا من كلامِ ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأريدك أن تبحثَ عن رجال حضارتِك وأسلافِ أمَّتِك، فانظر كيف تربَّت أجيالٌ إثرَ أجيالٍ من أعدائك على علمِ ابن خلدون هذا، وانظر في ذاتِ الوقتِ أين هذا الرجلُ من خَلَفِ أمَّتِهِ؟!

علينا أن نتربَّى على احترامِ أصولِنا العربية والإسلامية، وعلينا أن ننظرَ بعينِ الإجلالِ لسلف أمَّتنا، كيف كانوا يتعلَّمون ويعملون. وهاك مثالاً لطريقتهم في تعلُّمِ علمِ الحديثِ، وكيف كانوا يسيرون على التدرُّجِ الذي ذكره ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المقدمة):

قال القاسميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**اعلم أنَّ لدرسِ الحديثِ ثلاثةَ طرقٍ عند العلماءِ:**

أولها: السَّرْدُ: وهو أن يتلوَ الشيخُ المُسمِعُ أو القارئُ كتابًا من كتبِ الفنِّ، من دون تعرُّضٍ لمباحثِهِ اللغوية والفقهية، وأسماءِ الرجالِ ونحوها.

وثانيها: طريقُ الحلِّ والبحثِ: وهو أن يتوقَّفَ بعدَ تلاوةِ الحديثِ الواحد مثلاً على لفظه الغريب، وتراكيبه العويصة، واسمٍ قليلِ الوقوعِ من أسماءِ الإسنادِ وسؤالٍ ظاهرِ الورودِ والمسألةِ المنصوص عليها، ويحلُّه بكلامٍ متوسطٍ ثُمَّ يستمرُّ في قراءةِ ما بعدها.

وثالثها: طريقُ الإمعانِ: وهو أن يذكرَ على كلِّ كلمةٍ ما لَها وما عليها، كما يذكر مثلاً على كلِّ كلمةٍ غريبةٍ، وتراكيبَ عويصةٍ شواهدَها من كلام الشعراءِ، وأخواتِ تلك الكلمة، وتراكيبها في الاشتقاقِ، ومواضعِ استعمالاتها؛ وفي أسماءِ الرجالِ حالاتِ

قبائلهم وسيَرهم، ويخرِّج المسائلَ الفقهيةَ على المسائلِ المنصوصِ عليها، ويقصُّ القصصَ العجيبةَ، والحكاياتِ الغريبةَ بأدنى مناسبة وما أشبهها، فهذه الطرقُ هي المنقولةُ عن علماءِ الحرَمين قديمًا وحديثًا»(١).

وأنت -هداني الله وإياكَ سبيلَ الرشادِ- إذا تعقَّبتَ أساليبَ علمائنا ومناحيهم التي نَحَوْهَا في التعليمِ والدَّرسِ ثُمَّ نظرتَ فيما أحدثَ المحدَثون من أساليبَ وجدتَ علمائنا لهؤلاءِ المتخلِّفين سابقين، فاحرص على تراثِ أجدادِك وماضي أمَّتِك، والله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير.

❊ ❊ ❊

أسأل الله تعالى أن يجمع شتات هذه الأمة، وأن يهدي أبناءها إلى ما فيه خيرها، إنه على كلِّ شيءٍ قدير.

سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

والحمدُ لله أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، وصلى الله على نبينا محمَّد وعلى آله وأصحابهِ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا، وآخرُ دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

وكتب

أبو عبد الله

محمد بن سعيد بن رسلان

عفا الله عنه وعن والديه

(١) قواعد التحديث (ص٢٣٥).

المَصادر والمَراجع

١- القرآن الكريم.
٢- آداب الشافعي ومناقبه، للإمام ابن أبي حاتم الرازي، تحقيق الشيخ عبد الغني عبد الخالق، مكتبة التراث الإسلامي بحلب، بدون تاريخ.
٣- آداب المتعلم والعالم (مقدمة كتاب أيها الولد للغزالي) الأستاذ علي محيي الدين القره داغي، دار الاعتصام، طبعة ١٤٠٣هـ.
٤- أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام، للأستاذ عبد الحليم الجندي، طبعة ١٩٧٠.
٥- إحياء علوم الدين، الشيخ أبو حامد الغزالي، دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ.
٦- أدب الكاتب، للإمام ابن قتيبة، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، ١٣٨٢هـ المكتبة التجارية بمصر.
٧- اقتضاء العلم العمل، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق العلامة محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي. ط رابعة ١٣٩٧هـ.
٨- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا، والدكتور حامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط ١٩٨١.
٩- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، للإمام ابن عبد البر، دار الكتب العلمية ببيروت بدون تاريخ.
١٠- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير، تأليف العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر، دار التراث بالقاهرة، ط ثالثة ١٣٩٩هـ.
١١- تحت راية القرآن، للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، ط سابعة ١٣٩٤هـ.
١٢- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، للإمام جلال الدين السيوطي، تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف، المكتبة العلمية بالمدينة النبوية، ط ثانية ١٣٩٢هـ.
١٣- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، الشيخ العلامة ابن جماعة الكناني، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.
١٤- ترجمة الإمام أحمد (من تاريخ الذهبي) دار الوعي بحلب، بدون تاريخ.

١٥- تعليم المتعلم طريق التعلم، للإمام برهان الإسلام الزرنوجي، دار إحياء الكتب العربية بمصر، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
١٦- تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير، مكتبة التراث الإسلامي بحلب، طبعة ١٤٠٠هـ.
١٧- تفسير القرطبي، للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشعب، القاهرة.
١٨- تلبيس إبليس، للإمام أبي الفرج بن الجوزي، طبعة مصورة عن الطبعة الثانية بالمطبعة المنيرية، قامت بنشره مكتبة شباب الأزهر.
١٩- تيسير مصطلح الحديث، للدكتور محمود الطحان، ط المعارف.
٢٠- جلباب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة، للعلامة الألباني، مكتبة السداوي، ط ثالثة ١٤١٥هـ.
٢١- جامع بيان العلم وفضله، للإمام ابن عبد البر، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، بدون تاريخ.
٢٢- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للإمام أبي بكر الخطيب البغدادي، تحقيق الدكتور محمود الطحان، دار المعارف بالرياض، ط أولى ١٤٠٣هـ.
٢٣- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، للإمام ابن القيم، المكتبة السلفية بالقاهرة، ط ثانية ١٣٩٧هـ.
٢٤- الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ، للإمام ابن الجوزي، تحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم، دار الدعوة، ط أولى ١٤٠٣هـ.
٢٥- رحلة الإمام الشافعي بقلمه، رواية تلميذه الربيع بن سليمان، نشرة المطبعة السلفية بالقاهرة، ١٣٥٠هـ.
٢٦- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للعلامة محمد ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي.
٢٧- شرح السنة للإمام البغوي، تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط والأستاذ زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط ثانية ١٤٠٣هـ.
٢٨- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، للإمام جمال الدين بن هشام الأنصاري المصري، تحقيق العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد، بدون تاريخ.
٢٩- شرح النووي على صحيح مسلم، للإمام محيي الدين النووي، المطبعة المصرية، بدون تاريخ.
٣٠- صحيح الترغيب والترهيب للحافظ المنذري، صنعة الشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، ط أولى ١٤٠٢هـ.

٣١- طبقات الشافعية الكبرى، للإمام تاج الدين السبكي، تحقيق الأستاذين محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ.
٣٢- غاية الأماني في الرد على النبهاني، للإمام محمود شكري الألوسي، دار إحياء السنة النبوية، بدون تاريخ.
٣٣- الفائق في غريب الحديث، للشيخ جار الله الزمخشري، تحقيق الأستاذين علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط عيسى البابي الحلبي، طبعة ثانية، بدون تاريخ.
٣٤- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر، المطبعة السلفية بمصر، ط. ثانية ١٤٠١ هـ.
٣٥- الفقيه والمتفقه، للحافظ أبي بكر الخطيب، مكتبة أنس بن مالك، ١٤٠٠هـ.
٣٦- قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، للعلامة محمد جمال الدين القاسمي، دار إحياء الكتب العربية بدون تاريخ.
٣٧- كتاب العلم، للحافظ أبي خيثمة زهير بن حرب النسائي، تحقيق الشيخ الألباني، المكتب الإسلامي ط ثانية ١٤٠٣هـ.
٣٨- لسان العرب، للإمام أبي الفضل جمال الدين بن منظور، دار المعارف بمصر.
٣٩- المجموع شرح المهذب، للإمام محيي الدين النووي، نشرة الشيخ محمد نجيب المطيعي.
٤٠- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وولده محمد، مكتبة ابن تيمية، بدون تاريخ.
٤١- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، للإمام شمس الدين بن القيم، مكتبة الفاروق الحديثة، بدون تاريخ.
٤٢- مقدمة ابن خلدون، للإمام عبد الرحمن بن خلدون، ط دار الشعب، بدون تاريخ.
٤٣- مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، ط عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.
٤٤- النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين بن الأثير، تحقيق الأستاذين طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية ببيروت، بدون تاريخ.
٤٥- هدي الساري مقدمة فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية بمصر، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

فهرس المَوضوعات